

حياة البشر ، كما أن له الحاكمة العليا في نظام الكون سواء ، فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته ، وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن الله شريكاً في خلق الكون وتديره وتصريفه ؛ ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلا لله وحده ، ولا يتلقى الشرائع والقوانين ، والقيم والموازين والعقائد والتصورات إلا من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعى حق الحاكمة في شيء من هذا كله مع الله .

وفي الوقت الذي وجه الله - سبحانه - هذا التكليف إلى رسوله ﷺ ، وجه إلى قومه المخاطبين بهذا القرآن أول مرة الأمر باتباع ما أنزل في هذا الكتاب والنهي عن اتباع الأولياء من دون الله .

ولأن هذا التغيير المطلوب أمر عظيم يعرض السياق مصارع الغابرين من المكذبين في الدنيا ومصائرهم كذلك في الآخرة فهي خير مذكر ، وخير منذر ، والقرى التي أهلكت بسبب تكذيبها كثيرة . أهلكت وهي غارة غافلة ، في الليل وفي ساعة القيلولة حيث يسترخى الناس للنوم ويستسلمون للأمن ، ولم يكن لهؤلاء المأخوذون في غرتهم إلا الاعتراف ! ولم يكن لهم دعوى يدعونها إلا الإقرار !

والإنسان يدعى كل شيء إلا الاعتراف والإقرار ! ولكنهم في موقف لا يملكون أن يدعوا إلا هذه الدعوة ! ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

ويتنقل السياق من هذا المشهد المعروض في الدنيا إلى ساحة الآخرة بلا توقف ولا فاصل ؛ ليلحق عذاب الدنيا بعذاب الآخرة ؛ فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله في هذه الأرض وقفهم هناك للسؤال والحساب والجزاء ، فإنه لا يكتفى باعترافيهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذي أخذهم وهم غافلون : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ولكنه السؤال والتشهير بهم على الملأ الحاشد في ذلك اليوم المشهود ؛ حيث يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون ، ويسأل الرسل فيجيبون .

ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسوه ! يقصه عليهم - سبحانه - بعلم فقد كان حاضراً كل شيء . وما كان - سبحانه - غائباً عن شيء ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ فلا مجال للمغالطة في الوزن ؛ ولا التلبيس في الحكم ؛ ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام أو تبدل الموازين .

﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فقد ثقلت في ميزان الله الذي يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح ، وأى فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة إلى الجنة في نهاية الرحلة المديدة : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا ﴾ ، كانوا بآياتنا يظلمون فقد خفت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يخطئ . وقد خسروا أنفسهم فماذا يكسبون بعد ؟ إن المرء ليحاول أن يجمع نفسه فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له ؟

وبعد هذا المشهد المصور من ساحة الآخرة ، يبدأ السياق يقص بداية الرحلة الكبرى ، والتي يمهدها بتمكين الله للجنس البشرى فى الأرض ، كحقيقة مطلقة ، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً .

والله عز وجل هو الذى خلق الأرض والناس ، وهو الذى جعل الأرض مقرًا صالحًا لنشأته وهو الذى أودع فى هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ما يسمح بنشأة الإنسان وحياته ، وهو الذى نصبه سيد هذه المخلوقات جميعاً فى هذه الأرض ، وأعطاه القدرة على تطويعها واستخدامها .

إن الإنسان هو ابن هذه الأرض ، وربيب هذا الكون ، لقد أنشأه الله من هذه الأرض ، ومكنه فيها ، وجعل له فيها أرزاقاً ومعاش ، ولكن الناس قليلاً ما يشكرون .

بعد ذلك تبدأ القصة بأحداثها المثيرة ، تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان فى احتفال مهيب فى رحاب الملأ الأعلى ، يعلنه الملك ، زيادة فى الحفاوة والتكريم ، وتحتشد له الملائكة وفى زمريهم وإن لم يكن منهم إبليس - وتشهده السموات والأرض ؛ وما خلق الله من شئ ، إنه أمر هائل وحدث عظيم فى تاريخ هذا الوجود .

وبعد هذا الإعلان عن ميلاد الإنسان من الذات العلية أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنسانى على الله ، كما تتمثل الطاعة المطلقة فى ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله ، وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله - سبحانه - وعصاه وسنعم : ما الذى حاك فى صدره فيما يلى من السياق .

ما ترشدنا إليه الآيات تريبياً :

- ١ - سنن الله فى الكون لا تتبدل ولا تتغير ، وهو قادر على عقاب المكذبين إلى يوم الدين .
- ٢ - فى يوم القيامة يسأل الله الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته .

٣ - كل راع مسؤول عن رعيته وسيسأل عما استرعاه الله من رعية .

٤ - صحائف الأعمال توزن يوم القيامة بميزان له لسان وكفتان لينظر إليه الخلائق إظهاراً للعدل ، وقطعاً للمعذرة ، كما يسأل الإنسان عن عمله فتعترف جوارحه .

٥ - نعم الله علينا كثيرة ، وقد منَّ الله وشرَّفنا بأن خلقنا فى أحسن صورة ، وأسجد لأبينا آدم الملائكة ، وهى لنا أسباب الحياة على الأرض ، وسخر لنا كل شئ فعلىنا شكر المنعم بما أنعم .

معاني الكلمات :

- ما منعك : ما دعاك وحملك .
 الصاغرين : الأذلاء المهانين .
 أنظرني : أمهلني في الحياة .
 المنظرين : المهملين إلى وقت النفخة الأولى
 فيها أغويتني : فيها أضللتني .
 مذؤوما : محقرا عينا .
 مدحورا : مطرودا مبعدا .
 ما ووري عنها : ما ستر وخفى .
 سوءاتها : عوراتها .
 قاسمها : حلف لها .
 فدلاهما : فأنزلهما عن مرتبة الطاعة بخداع .
 طفقا يخصفان : شرعا يلزقان .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم قدر الإنسان عند الله ، وتكريمه له ، وحفاوته به .
- ٢ - أن نعلم طبيعة المعركة والصراع بين بنى آدم والشيطان .
- ٣ - أن ندرك جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها واستمرارها وضراوتها .
- ٤ - أن نعلم عاقبة الكبر في الآخرة وفضيلة التواضع في الدنيا والآخرة .
- ٥ - أن نعلم أن المعصية سبب كشف العورات والحسنة من أسباب الستر .

المحتوى التربوي :

يستأنف السياق أحداث قصة الخليفة في بدايتها الأولى ، ويصور في مشهد ثلاثة نماذج من خلق الله : نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق (الملائكة) ، ونموذج العصيان المطلق ، والاستكبار المقيت (إبليس) ، ونموذج الطبيعة المزوجة (الإنسان) .

والذي منع إبليس من السجود أنه جعل لنفسه رأيا مع النص ، وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم لنفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر ، والأصل كما يقول صاحب

الظلال :وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ، ويبتل التفكير ، وتتعين الطاعة ، ويتحتم التنفيذ .

لذا طرد من الجنة ، وطرد من رحمة الله ، وكُتِب عليه الصغار ، ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ؛ ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم . ثم ليؤدى وظيفته وفق طبيعة الشر التى تمخضت فيه ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ... الآية ويتضح هنا الإصرار المطلق على الشر ، والتصميم المطلق على الغواية ، لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث ، وبعدها أعلن فى تبجح خبيث - وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل - أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به ، بسبب معصيته وتبججه ؛ بأن يغوى ذلك المخلوق الذى كرمه الله ، والذى بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده .

أقسم أنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه - والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حساً ، فإله سبحانه جلّ عن التحيز ، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدى إلى رضا الله - وإنه سيأتى البشر من كل ناحية ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة وهو مشهد حتى شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر فى محاولته الدائبة لإغوائهم ، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه . اللهم إلا القليل الذى يستجيب ﴿ وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه ؛ لأن مشيئة الله - سبحانه - اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه ؛ بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر ، وبما وهبه من عقل مرجح ؛ وبما أمدّه من التذكير والتحذير على أيدى الرسل ، ومن الضبط والتقويم بهذا الدين .

كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ؛ وأن يصطرع فى كيانه الخير والشر ؛ وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين ، فتحقق عليه سنة الله وتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أو ضل ، فعلى سنة الله الجارية ووفق مشيئته الطليقة ، تحقق الهدى أو الضلال .

وبعد ذلك يأتى مشهد آخر ينظر الله إلى آدم وزوجته بعد طرد إبليس من الجنة ، ليعهد إليهما ربهما بأمره فى حياتهما ؛ ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسى ؛ ويحظر عليهما الأكل من شجرة معينة بعد أن أذن لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور . ولا بد أن الحظر فى ذاته هو المقصود .

ولكن إبليس راح يداعب الشهوات فوسوس لهما ليبدى لهما ما وورى عنهما من سواتهما فهذا كان هدفه .. لقد كانت لهما سوات ، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها ، وجاءهما من ناحية رغائبهما العميقة ﴿ وَقَالَ مَا تَهْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة ، وأن هذا النهى له ثقله فى نفوسهما وقوته ؛ فقد استعان على زعزعتة - بتأمينهما من هذه الناحية ؛ فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح وصاد فى نصحه .

ونسى آدم وزوجته أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلّهما على خير ! وأن الله أمرهما أمرًا عليهما طاعته سواء عرفاه علته أم لم يعرفاه ! وأنه لا يكون شيء إلا بقدر من الله ، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذى لا يبلى فلن ينالاه !

نسيا هذا كله واندفعا يستجيبان للإغراء ! وتمت الخدعة ، وآتت ثمرتها المرة ، لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته ، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا ، وشعرا الآن أن لهما سوات ، تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما ، فراحا يجتمعان من ورق الجنة ويضعان هذا الورق على سواتهما ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ﴾ .

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وإغفال النصيحة ؛ وأما هذا النداء العلوى يتكشف الجانب الآخر فى طبيعة هذا الكائن البشرى المتفرد - كما يقول صاحب الظلال - رحمه الله - فى ظلاله : إنه ينسى ويخطئ . إن فيه ضعفًا يدخل منه الشيطان . إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً ، ولكنه يدرك خطأه ، ويعرف زلته ؛ ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة ، إنه يثوب ويتوب ، ولا يلج كالشيطان فى المعصية . ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية ! ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - الصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، صراع قديم وسيستمر إلى يوم القيامة .
- ٢ - الكبر والحسد مرضان من أخطر الأمراض النفسية التى تدمر صاحبها ، وتؤدى إلى كثير من أنواع الجرائم والإفساد .

أخرج الترمذى ، عن عمرو بن شعيب عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن فى جهنم يُقال له : بولس يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » .

- ٣ - إبليس اللعين عدو لآدم وذريته ، فعلينا أن نتخذة عدواً حتى لا نتعرض لإغوائه وإضلاله .

- ٤ - المعصية من أهم أسباب كشف العورات ، والطاعة لله ورسوله سبيل إلى الستر فى الدنيا والآخرة .

- ٥ - إن العرى فطرة حيوانية ، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان ، وإن رؤية العرى جمالاً هو انتكاس فى الذوق البشرى قطعاً .

معاني الكلمات :

يوارى : يستر . ريشاً : مالاً أو لباس زينة .

لباس التقوى : الإيمان وثمرته .

لا يفتنكم : لا يخدعكم . قبيله : جنوده

وذريته . أقيموا وجوهكم : توجهوا إلى

عبادته مستقيمين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - بيان فضيلة التقوى والحياء وقبح

العرى وحب الفاحشة .

٢ - أن نداوم الحذر ، ونضاعف اليقظة

من عدونا الدائم إبليس لعنه الله .

٣ - أن ندرك مكانة الإنسان في الوجود

وضخامة الدور المنوط به وسعة الآفاق

التي يتحرك فيه .



٤ - أن نستشعر كرامة ولاية الله للمؤمنين ، وتعاسة ولاية الشيطان للكافرين .

المحتوى التربوي :

وغضى الآيات تكمل القصة الأولى لأبى البشر آدم عليه السلام وزوجه حواء ، حيث ندما وقالوا : ﴿ رَبَّنَا ظَنَّمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وتلك خصيصة « الإنسان » التى تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه ، الاعتراف ، والندم ، والاستغفار ، والشعور بالضعف والاستعانة به ، وطلب رحمته . مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته ، وإلا كان من الخاسرين .

وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت ؛ وعرفها وذاق مرارتها واستعد بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة - لمزاولة اختصاصه في الخلافة ؛ وللدخول في المعركة التى لا تهدأ أبداً مع عدوه ﴿ قَالُوا أَهَبْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ الآية ، لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض ، آدم وزوجه ، وإبليس وقبيله . هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً ، ولتدور المعركة بين طبعيتين وخليقتين : إحداهما محضه للشر ، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر ؛ وليتم الابتلاء ، ويجرى قدر الله بها شاء .

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض ، ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بها فيها إلى حين وكتب عليهم أن يحيا فيها ويموتوا ؛ ثم يخرجوا منها فيبعثوا . ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو نارها ، في نهاية الرحلة الكبرى .

ويعقب الله على هذه القصة بعدة نداءات لبني آدم : أولها تشريعه لهم اللباس الذي يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة - بهذا الستر - وجمالاً ، بدل قبح العرى وشناعته ويصفه بأن خير ، لأنه لباس التقوى .

ويقول صاحب الظلال : فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة ، وبين التقوى . كلاهما لباس ، هذا يستر عورات القلب ويزينه ، وذلك يستر عورات الجسم ويزينه ، وهما متلازمان . فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه ، ومن لا يستحيى من الله ولا يتيقيه لا يهجمه أن يتعري وأن يدعو إلى العرى ، العرى من الحياء والتقوى ؛ والعرى من اللباس وكشف السواة !

ويأتى النداء الثانى لبني آدم ، في وقفة التعقيب على قصة أبويهم ، وما جرى لهما مع الشيطان ؛ وعلى مشهد العرى الذى أوقفهما فيه عدوهما ، بسبب نسيانها أمر ربها والاستماع إلى وسوسة عدوهما ، وهذا النداء تحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة ، أن يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ؛ فيسلمهم إلى الفتنة - كما فعل مع أبويهم من قبل ، إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما .

وزيادة في التحذير ، واستثارة للحذر ، ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم ، وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ، وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط ، وإلى مضاعفة اليقظة ، وإلى دوام الحذر ، كى لا يأخذهم على غرة .

ثم يأتى الإيقاع المؤثر الموحى بالتوقى ، إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ويا ويل من كان عدوه ولياً ، إنه إذا سيطر عليه ويستهو به ، ويقوده حيث شاء بلا عون ولا نصير ، ولا ولاية من الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ويواجه القرآن المشركين بهذا الحقيقة الواقعة عندما يكونون في ولاية الشيطان ؛ وهم يزاولون فاحشة التعرى في الطواف ببیت الله الحرام وفيهم النساء ! ثم يزعمون أن الله أمرهم بها فقد كان أمر آبائهم بها ففعلوها ، ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها ! والله سبحانه - يأمر نبيه - ﷺ أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله ، وبتقرير طبيعة شرع الله وكرامته للفاحشة ، فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها .

إن هؤلاء المشركين - على شركهم - لم يكونوا يتبعجون تبجح المجتمعات المعاصرة ، التى تقول : ما للدين وشؤون الحياة ، دع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر ، بل كانوا يفترون الفرية ،

ويزعمون أنها من عند الله ، وقد يكون هذا الأم وأخبث ، لأنها تخدع الذين في قلوبهم بقية من عاطفة دينية ، ولكنها على كل حال أقل تبجحاً .

يقول صاحب الظلال : إن الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً .. والفاحشة : كل ما يفحش أى يتجاوز الحد - والعرى من هذه الفاحشة ، فالله لا يأمر به . وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى ؟ ومن الذى أعلمهم بأمر الله ذاك ؟ إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء ، إن أوامره وشرائعه واردة في كتبه على رسله ، وبعد ذلك ينكر عليهم دعواهم في أن الله أمر بهذه الفاحشة ، ويبين لهم أن أمر الله يجرى في اتجاه مضاد ، لقد أمر الله بالعدل والاعتدال في الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز وأمر بالاستقامة على منهج الله في العبادة والشعائر ، والاستمداً مما جاء في كتابه على رسوله ﷺ ، ولم يجعل المسألة فوضى ، يقول كل إنسان فيها بهواه ، ثم يزعم أنه من عند الله . وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له ، والعبودية كاملة : فلا يدين أحد لأحد لذاته ، ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته .

وعند هذا النداء يأتى التذكير والإنذار ؛ ويلوح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ما هم فيه من أجل مرسوم للابتلاء ، وبمشهدهم في العودة وهم فريقان : الفريق الذى اتبع أمر الله . والفريق الذى اتبع أمر الشيطان . وكما بدأكم تعودون : فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، ﴿ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

وهى نقطة عجيبة تجمع نقطة البدء في الرحلة الكبرى ونقطة النهاية ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وقد بدؤوا الرحلة فريقين : آدم وزوجه ، والشيطان وقبيله ، وكذلك سيعودون : الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء فهم المسلمون المؤمنون المتبعون لأمر الله ، والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله ، يملأ الله منهم جهنم ، بولائهم لإبليس وولايته لهم . وهم يحسبون أنهم مهتدون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - العداوة قائمة إلى يوم القيامة بين آدم وذريته وإبليس وجنوده وذريته ، وليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين ، وإنما يتولى أمور الذين لا يؤمنون بالله ورسوله .

٢ - لا يجوز أن نقلد الآباء والأجداد في المعاصي وقبائح الذنوب ، وإنما نوجه أعمالنا لله سبحانه وتعالى .

٣ - ضرورة الاستقامة والمحافظة على الصلاة والإخلاص لله .

٤ - التجميل في الملابس فطرة أودعها الله قلوب عباده ، ولا حرج في ذلك ، وكذلك ستر العورات ، والتزين المباح ، ولكن أفضل اللباس وأبقاه هو لباس الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة .

معاني الكلمات :

زيتكم : ما يتزين به من الثياب وغيرها .

لا تسرفوا : لا تجاوزوا الاعتدال .

الفواحش : الأمور القبيحة جداً .

بطن : خفى . البغى : الظلم .

سلطاناً : دليلاً .

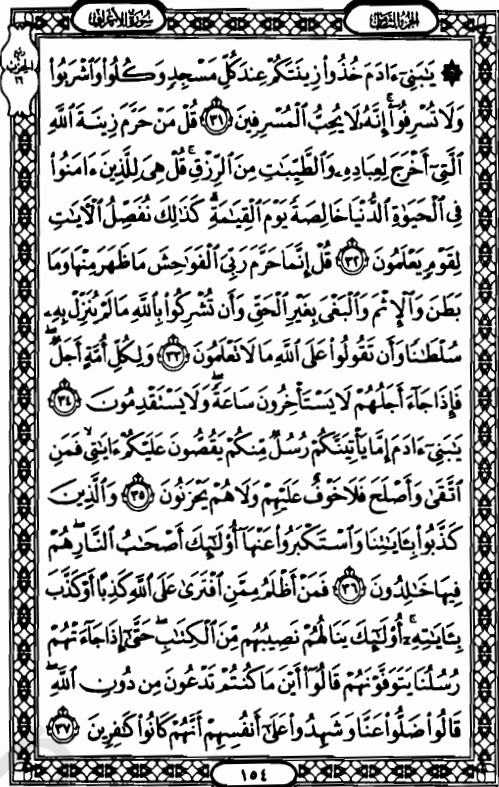
الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - ألا يحرم المسلم ما أحل الله من الزينة والطيبات من الرزق .

٢ - أن نتخذ الزينة والطيب عند الذهاب إلى كل عبادة .

٣ - ألا نتجاوز حد الاعتدال في المأكول والملبس ، وما أحل الله .

٤ - أن نعلم أن الافتراء على الله بدون



علم من أعظم المحرمات .

المحتوى التربوي :

يمضي السياق مكرراً نداء المولى - عز وجل - إلى بنى آدم ليؤكد على الحقائق الأساسية للعقيدة، في مواجهة ما عليه المشركون العرب في الجاهلية، والنداء هنا إلى بنى آدم كافة أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذى أنزله الله عليهم عند كل عبادة ، وكذلك ليتمتعوا بالطيبات من الطعام والشراب دون إسراف ، وقد ورد أنه كان هناك تحريم في الطعام ، كالتحريم في الثياب بطوافهم عرايا حول البيت ، وكان هذا من مبتدعات قريش كذلك .

ولا يكتفى السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد ، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب ، بل يستنكر تحريم هذه الزينة التى أخرجها الله لعباده ، وتحريم الطيبات من الرزق ، فمن المستنكر أن يحرم أحد - برأيه - ما أخرج الله للناس من الزينة أو من الطيبات . فتحريم شئ أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله .

ويتبع الاستنكار بتقرير أن هذه الزينة من اللباس ، وهذه الطيبات من الرزق ، هى حق للذين آمنوا بحكم إيمانهم برهم الذى أخرجها لهم - ولئن كان سواهم يشاركونهم فيها فى هذه الدنيا ، فهى خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركونهم فيها الذين كفروا ولن يكون الشأن كذلك ، ثم

تكون محرمة عليهم ؛ فما يخصهم الله في الآخرة بشيء هو حرام ! والذين ﴿ يَعْمُونَ ﴾ حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان .

فأما الذى حرمه الله حقاً ، فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس ، وليس هو الطيب من الطعام والشراب - فى غير سرف ولا مخيلة - إنما الذى حرمه الله حقاً هو الذى يزاولونه فعلاً !

فالذى حرمه الله . الفواحش - ما ظهر منها وما بطن - من الأعمال المتجاوزة لحدود الله . والإثم وهو كل معصية لله على وجه الإجمال ، والظلم الذى يخالف الحق والعدل ، وإشراك ما لم يجعل الله به قوة ولا سلطاناً مع الله - سبحانه - فى خصائصه ، ومنه الذى كان واقعاً فى الجاهلية .

ويقول صاحب الظلال : ومن عجب ما روى من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ، ووجه إليهم هذا الاستنكار الوارد فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ ما رواه الكلبي قال : لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت غيرهم المشركون بها ، فنزلت الآية .

ويأتى نداء جديد لبنى آدم يناقش قضية التلقى والاتباع فى شعائر الدين وفى شرائعه ، وفى أمر الحياة كلها وأوضاعها ، وذلك لتحديد الجهة التى يتلقون منها ، إنما جهة الرسل المبلغين عن ربهم ، وعلى أساس الاستجابة أو عدمها للرسل يكون الحساب والجزاء .

وتعرض الآيات مشاهد حافلة بالحركة والتتابع ليوم القيامة مشهد الاحتضار ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ الحشر والحساب ومشهد الفصل والجزاء ؛ والحديث عن شأن المتقين والمستكبرين ؛ بعد الأجل المعلوم ، . ففى مشهد الاحتضار يتحدث عن الذين افتروا على الله الكذب بعد المعلوم .

فزعموا أن ما ورثوه عن آبائهم من التصورات والشعائر ، وما شرعوه هم لأنفسهم من التقاليد والأحكام ، أمرهم به الله ، والذين كذبوا بآيات الله التى جاءهم بها الرسل - وهى شرع الله المستيقن - وآثروا الظن والخرص على اليقين والعلم . وقد نالوا نصيبهم من متاع الدنيا الذى كتب لهم ، ومن فترة الابتلاء التى قدرها الله ، كما نالوا نصيبهم من آيات الله التى أرسل بها رسله وأبلغهم الرسل نصيبهم من الكتاب .

ويصف السياق مشهد أولئك الذين افتروا على الله كذباً وكذبوا بآياته ؛ وقد جاءتهم رسلهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار ﴿ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أين دعاويكم التى افترىتم على الله ؟ وأين اهتكم التى توليتم فى الدنيا ، وفتنتم عما جاءكم من الله على لسان الرسل ؟ أين هى الآن فى اللحظة الحاسمة التى تسلب منكم فيها الحياة ؛ فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذى أجله الله ؟

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذى لا معدى عنه ، ولا مغالطة فيه : ﴿ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا ﴾ غابوا عنه وتاهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقراً ، ولا هم يسلكون إلينا طريقاً ! .. ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .

قال ابن القيم فى كتابه مدارج السالكين مفسراً قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ الآية - قال :

وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريماً وأعظمها إثماً : ولهذا ذكر فى المرتبة الرابعة من المحرمات التى عليها الشرائع والأديان ، ولا تباح بحال ، بل لا تكون إلا محرمه ، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذى يباح فى حال دون حال ، فإن المحرمات نوعان : محرم لذاته لا يباح بحال ، ومحرم تحريمه عارض فى وقت دون وقت . قال الله تعالى فى المحرم لذاته : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْأَلْبَنَى بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ .

ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه ، فقال : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدّها إثماً ، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به وتغيير دينه وتبديله ، ونفى ما أثبتته وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله ، وإبطال ما أحقه وعداوة من والاه ، وموالاته من عاداه ، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله ، فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشدّ إثماً ، وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم .

ما ترشدنا إليه الآيات تريبياً :

١ - الحرص على الاعتدال فى المأكّل والمشرب وعدم الإسراف ، وشكر الله على ما أنعم به علينا من الطيبات .

٢ - الدين الإسلامى يبيح التمتع بالحلال الطيب من الرزق فى المأكّل والمشرب من غير تفاخر أو إسراف .

٣ - الشرك بالله ، والتجرؤ على القول فى الدين ، وعلى أحكامه - بغير علم - من أعظم المحرمات عند الله وأشدّها إثماً .

٤ - الملائكة إذا توفت المشركين ، تفزعهم عند الموت ، وتقبض أرواحهم إلى النار ، وتوبخهم على إشراكهم .

معاني الكلمات :

أذركوا فيها : تلاحقوا في النار . أخرهم : المتأخرون منزلة وهم الأتباع . لأولاهم : المتقدمين منزلة (الرؤساء والقادة) . يلج : يدخل . سم الخياط : ثقب الإبرة . مهاد : فراش أى مستقر . غواش : أغطية . وسعها : طاقتها . غل : حقد وعداوة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتدبر مشاهد يوم القيامة ، ونأخذ منها العبرة والعظة .
- ٢ - أن نعلم علم اليقين أن الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر .
- ٣ - أن نوقن أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله وفضله .

- ٤ - أن نعمل عمل أهل الجنة ، لنفوز



بها ، ونتجنب عمل أهل النار لننجو منها .

المحتوى التربوي :

تحتشد الآيات التالية عدة مشاهد ليوم القيامة ؛ وبعد مشهد الاحتضار يأتي مشهد هؤلاء المحتضرين في النار ! وتسكت الآيات عما بينها ، وتسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر . وكأنها يؤخذ هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار !

ويقول لهم المولى عز وجل : انضموا إلى زملائكم وأولياكم من الجن ؟ والإنس ، هنا في النار ، أليس إبليس هو الذى عصى ربه ؟ وهو الذى أخرج آدم وزوجه من الجنة ؟ وهو الذى أغوى أبناءه ؟ وهو الذى أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار ؟ فادخلوا إذن جميعاً ، ادخلوا سابقين ولاحقين ، فكلكم أولياء ، وكلكم سواء .

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ؛ ويملى متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنازع فيها : «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا» فما أبأسها نهاية تلك التى يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولي لمولاه ، وعندما يتلاحق آخرهم وأولهم ، ويجتمع قاصيهم بدانيهم ، يبدأ الخصام والجدال ، وتبدأ مهزلتهم ومأساتهم ! وتكشف الآيات عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ؛

يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً فيقولون ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ فتأتيهم الاستجابة : ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وكانما شملت المدعو عليهم بالداعين ، حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشimate كلنا سواء ، في هذا الجزاء : ﴿ وَقَالَتْ أُولَئِهِنَّ لِأَخْرَجْنَهُنَّ فَمَا كَارَ لَكُمَّ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ! وبهذا ينتهى ذلك المشهد الأليم ؛ ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذى لن يتبدل - وذلك قبل عرض المشهد المقابل للمؤمنين في دار النعيم .

فبعد أن ذكر ما تقول الملائكة للكافرين عند الموت ، وذكر ما يقول الله لهم يوم القيامة ، عاد السياق ليحدثنا عما يكون للكافر عند الموت ، وما يكون له يوم القيامة فلا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة ، إذ هي في السماء ، أو يصعد لهم عمل صالح ، ولا تنزل عليهم البركة ، أو لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء ، ولا يدخلون الجنة أبداً حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة ؛ ومثل هذا الجزاء الفظيع ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى الكافرين وجريمتهم التكذيب بآيات الله ، والاستكبار عنها .

﴿ هُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ أى فراش ؛ ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ أى أعطية ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر .

قال الشيخ محمد أبو زهرة في زهرة التفاسير : « ذكر الله تعالى للكافرين بآيات الله جزاءين :

الجزاء الأول : أنه لا تفتح لهم أبواب السماء ، أى أبواب الرحمة .

الجزاء الثانى : أنهم لا يدخلون الجنة ، وأن ذلك مستحيل عليهم ، كاستحالة دخول الجمل في سم الخياط » وذكر قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم تصور الآيات مشهد الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم ، والذين لم يكلفوا إلا طاعتهم ، هؤلاء يعودون إلى جنتهم ، فهم أصحابها - بإذن الله وفضله - ورثها لهم - برحمته - بعملهم الصالح مع الإيوان ، جزاء ما اتبعوا رسل الله ، وعصوا الشيطان ، وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللئيم إبليس ! .

ولولا رحمة الله ما كفى عملهم - في حدود طاعتهم - وقد قال رسول الله ﷺ « لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل » .

وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه في هذا الشأن ، وقول رسوله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى ، فلقد علم الله من بنى آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفى أعمالهم بحق الجنة، ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا . فكتب على نفسه الرحمة؛

وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف ؛ وكتب لهم به الجنة ، فضلاً منه ورحمة ، فاستحقوها بعلمهم ولكن بهذه الرحمة ..

وبعد ، فإذا كان أولئك المفترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون في النار ويتخاصمون ، وتغلى صدورهم بالأحقاد ، بعد أن كانوا أصفياء أولياء ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوان متحابون متصافون متوادون يرف عليهم السلام والولاء ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ﴾ .

قال القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » : قال رسول الله ﷺ : « الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل قد نزع الله من قلوب المؤمنين » ، وروى عن علي عليه السلام أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ﴾ .

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجرى من تحتهم الأنهار فتurf على الجو كله أنسام ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنايز والخصام ، فأهل الجنة يشتغلون بالحمد والاعتراف ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ ﴾ .

وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب ﴿ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ فإن أهل الجنة ينادون بالتأهيل لرضوان الله والتكريم ﴿ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إنه التقابل التام بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

فلنقبل على الله بالعمل والإخلاص والمحبة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والبغض لأعدائه ، فلعل الله أن يوقفنا الموقف الأكرم فنكون من أهل الدرجات العلا وما ذلك على الله بعزيز ، وإن أملنا به كبير ، ورجاءنا له لعظيم على تقصير في العمل واتهام للنفس .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الدنيا دار ابتلاء وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء .

٢ - لن ينفع أحدٌ أحداً يوم القيامة ، وسوف يلوم المقلدون رؤساءهم ، ويتبرأ الزعماء من أتباعهم ، ويستوون جميعاً في العذاب ما داموا قد ضلوا عن الهدى والحق .

٣ - الله - تعالى - لا يستجيب دعاء الكافرين ، ولا يتقبل أعمالهم .

٤ - ليس في الجنة حقد ، ولا غل ولا حسد ، وإنما نعيم وسعادة ورضا .

٥ - يجب أن نعمل أعمال أهل الجنة ؛ لنفوز بها ؛ وأن نتجنب أعمال أهل النار ؛ لننجو منها .

معاني الكلمات :

فأذن مؤذن : فنادى مناد . يبعونها : يريدونها .

بينهما حجاب : حاجز وهو سور بينهما .

الأعراف : أعلى هذا السور وشرفاته .

بسيماهم : بعلامتهم المميزة لهم .

أفيضوا علينا : صبوا أو ألقوا علينا .

ننساهم : يتركهم الله في العذاب .

وما كانوا : وكما كانوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتدبر مواقف أهل الجنة وأهل

النار الواردة في الآيات .

٢ - أن نعلم أن الحسنات تنجى ،

والسيئات تُردى .

٣ - أن نذكر دائماً الله عز وجل - في كل حين ، وأن نلتزم بما أمر .

المحتوى التربوي :

تخبرنا الآيات أن أهل الجنة يخاطبون أهل النار على جهة التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ، فيقولون لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم فننادى مناد أن لعنة الله مستقرة على الظالمين ، الذين صدوا الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه ، وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبل معوجة غير مستقيمة ، وهم بلقاء الله في الدار الآخرة جاحدون ، يكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً ، ولما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار تبّه أن بين الجنة والنار حجاباً : وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، وهو السور الذي وصفه الله في سورة الحديد ﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُدٌ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (الحديد : ١٣) .

وهو الأعراف جمع عرف ، وفي الأصل : فكل مرتفع من الأرض تسميه العرب عرفاً ، ويقول صاحب الأساس وحاصل الكلام في أهل الأعراف ، أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم هؤلاء أهل الأعراف يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه ، يحبون أهل الجنة ويطمعون أن يدخلوا الجنة ، وهم داخلوها إن شاء الله ، فإن الله ما جعل



الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدونها ، هؤلاء أصحاب الأعراف يحبون أهل الجنة كما رأينا ، وإذا رأوا أصحاب النار تعوذوا بالله أن يجعلهم معهم . وكما أن أهل الجنة يُقَرَّعون أهل النار ، فإن أهل الأعراف يُقَرَّعون أهل النار بسيماهم : ما أغنى عنكم جمعكم (أى كثرتمكم) واستكباركم من عذاب الله شيئا بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال .

وعندما يقول أهل الأعراف ما يقولونه يقول الله لأهل التكبر والأموال : أى لأهل النار عن أهل الأعراف هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ، ثم يأمر بإدخال أهل الأعراف الجنة ، فما أكثر حسرة أهل النار .

يقول الزمخشري : « يقال لأصحاب الأعراف : ﴿ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ ، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ، ويعرفوهم بسيماهم ، ويقولوا ما يقولون ، وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحدا لا يسبق عند الله إلا ببقه في العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السمعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماهم التي إستوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسيء عن إساءته ، ويزيد المحسن في إحسانه ، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد ، حتى أقصر الناس عملا » .

ثم يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شراهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، ينادى الرجل أباه أو أمه فيقول له : قد احترقت فأفرض علىّ من الماء فيقال لهم : أجيئوهم ، فيقولون : إن الله حرمهما على الكافرين بما كانوا يعملونه في الدنيا باتخاذهم الدين هواً ولعباً ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها ، عما أمروا به من العمل للأخرة ، ولذلك فإنهم يعاقبون يوم القيامة بأن يعاملهم الله معاملة المنسى من الخير ، ويتركهم في النار كما تركوا أن يعملوا للقاء ربهم ويومهم هذا ، ولسبب جحودهم بآيات الله .

قال الشهاب : ﴿ نَنْسَهُمْ ﴾ تمثيل شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتد به ، ويلتفت إليه فينسى ، لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أى لأنه تعالى لا يشذ عن عمله شيء ، كما قال : ﴿ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (طه : ٥٢) ، والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثيراً في لسان العرب ، ويصح هنا أيضاً ، فيكون استعارة تحقيقية أو مجازاً مرسلًا ، وكذا نسيانهم لقاء الله أيضاً ، لأنهم لم يكونوا ذاكرى الله حتى ينسوه ، فشبه عدم إخطارهم والقيامة ببالهم ، وقلة مبالاتهم . بحال من عرف شيئا ثم نسيه .. » .

روى عن ابن عباس أنه قال في تفسير استجداء أهل النار لأهل الجنة : ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى ، أغثنى ، فإننى قد احترقت ، فأفرض علىّ من الماء ، فيقال : أجبه ، فيقول : إن الله حرمهما على الكافرين . وعن ابن زيد في الطلب قال : يستسقونهم ويستطعمونهم - وفي قوله « حرمهما » قال : طعام الجنة وشراهما ، وروى عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والبيهقي في

شعب الإيمان أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه شرب ماء بارداً فبكى فسئل ما يبكيك ؟ قال ذكرت آية في كتاب الله ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (سبا : ٥٤) ، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد ، وقد قال الله - عز وجل - أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

ويقول صاحب المنار : وفيه أن الآية لا حصر فيها وفي الشعب والتفسير المأثور عنه أيضاً - أى عبد الله بن عمر - أنه سئل : أى الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة سقى الماء » ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا : ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ وروى أحمد عن سعد بن عباد أن أمه ماتت ، فقال : يا رسول الله أتصدق عليها ؟ قال : « نعم » قال فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « سقى الماء » .

ومما روى في شأن الأعراف ما روى عن حذيفة ، فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وإذا صُرِفَ أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك ، فقال لهم : اذهبوا ، فادخلوا الجنة ، فإننى قد غفرت لكم .

قال الألوسى فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ ﴾ روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أحد يحبنا ونحبه ، وأنه يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار ، يُحبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم ، وهم - إن شاء الله تعالى - من أهل الجنة . وقيل : هو الصراط : روى ذلك عن الحسن بن المفضل .

حكى القرطبى وغيره فى أهل الأعراف اثنى عشر قولاً ، وأقوى الأقوال ما ذكرنا ، ويشهد له الحديث المرسل الحسن عن عمرو بن جرير قال : سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال : « هم آخر من يُفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد ، قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائى ، فارعوا فى الجنة حيث شئتم » . ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - تقرير مبدأ ثقل الحسنات ينجى من النار وخفتها تردى ، ومن استوت حسناته وسيئاته ينجو آخر من ينجو من دخول النار .

٢ - عدم إغناء المال والرجال أى إغناء لمن مات كافراً مشركاً من أهل الظلم والفساد .

٣ - التحذير من الاغترار بالدنيا حتى ينسى العبد آخرته ، فلم يعد لها ما ينفعه فيها من الإيمان وصالح الأعمال .

٤ - حرم الله - تعالى - الجنة ، وما فيها من طعام وشراب على الكافرين .

٥ - من نسى لقاء الله فى الدنيا ترك فى العذاب يوم القيامة ، كأنه منسى ، فالجزاء من جنس العمل .

معاني الكلمات :

يفترون : يكذبون . يطلبه حثيثاً : أى طلباً سريعاً . تبارك الله : تعظم وتزه .

تضرعاً : تذللاً وخشوعاً . خفية : سرا في قلوبكم . بُشراً : مبشرات برحمته وهى الأمطار . أقلت سحاباً : حملت غماماً .

ثقلاً : مثقلة بحمل الماء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتأدب مع الله في الدعاء ،
فالدعاء مخ العبادة .

٢ - ألا نتعدى حدود الله ، ولا نفسد في الأرض بعد إصلاحها .

٣ - ألا ندعو مع الله أحداً ، فهذا شر أنواع الاعتداء في الدعاء .



المحتوى التربوى :

بعد انتهاء ذلك الاستعراض الكبير ؛ يحى التعقيب تذكرياً بهذا اليوم ومشاهده ، وتحذيراً من التكذيب بآيات الله ورسله ، ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

نعود من هذه المشاهد إلى هذه الدنيا التى نحن فيها ! وقد قطعنا رحلة طويلة في الذهاب والمجىء ! إنها رحلة الحياة كلها ، ورحلة الحشر والحساب والجزاء بعدها وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد من المنشأ إلى المعاد ، يأخذ السياق بأيدي البشر إلى رحلة أخرى في ضمير الكون ، وفي صفحته المعروضة للأظفار فيعرض قصة خلق السموات والأرض بعد قصة خلق الإنسان ، ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكنونات هذا الكون وأسراره وإلى ظواهره وأحواله - إلى الليل الذى يطلب النهار فى ذلك الفلك الدوار ، وإلى الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله . وإلى الرياح الدائرة فى الجواء ، تُقل السحاب إلى البلد الميت بإذن الله - فإذا هو حى ، وإذا الموات يؤتى من كل الثمرات .

هذه السبحات فى ملكوت الله ، يرتادها السياق بعد قصة النشأة الإنسانية ؛ وبعد عرض التصورات الجاهلية والتقاليد التى يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع ، يرتاد السياق هذه السبحات ليرد البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع ، يرتاد السياق هذه

السبحات ليرد البشر إلى ربهم ، الذى خلق هذا الوجود وسخره ، والذى يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره ، والذى له الخلق والأمر وحده .

يقول صاحب الظلال : فى ظل تلك المشاهد يدعوهم : ﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إن إخلاص الدين لله ، وتقدير عبودية البشر له ، إن هى إلا فرع من إسلام الوجود كله ، وعبودية الوجود كله لسلطانه ، وهذا هو الإيحاء الذى يستهدف المنهج القرآنى تقريره وتعميقه فى القلب البشرى ، وأيما قلب أو عقل يتجه بوعى ويقظة إلى هذا الكون ونواميسه المستترة ، وظواهره الناطقة بتلك النواميس المستترة لابد أن يستشعر تأثيراً لا يروا سلطانه ؛ ولابد أن يهتز من أعماقه بالشعور القاهر بوجود المدبر صاحب الخلق والأمر .

ويقول صاحب الأساس : وفى هذا السياق يرشدنا تعالى بعد أن عرفنا على قدرته وعلمه إلى دعائه الذى فيه صلاحنا فى دنيانا وأخرانا ، ويرشدنا أن يكون هذا الدعاء على حال التذلل والاستكانة والخشوع بأن يجتمع فيه التضرع والخفية وقد فسر ابن جرير « تضرعاً » فقال : تذلاً واستكانة لطاعته وفسر « خفية » : بخشوع قلوبكم ، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهازاً مراعاة وقد بين تعالى أنه لا يحب المعتدين لا فى الدعاء ولا فى غيره ثم نهى عن الإفساد فى الأرض وخاصة بعد الإصلاح .

فإذا كانت الأمور سائرة على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان آخر ما يكون على العباد ، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل إليه خوفاً مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب مبيناً أن رحمته مرصدة للمحسنين الذى يتبعون أوامره ويتركون زواجره .

يقول صاحب الظلال : فى ظل مشهد التضرع فى الدعاء ، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله ، ينهى عن الاعتداء على سلطان الله ، فيما يدعونه لأنفسهم - فى الجاهلية - من الحاكمية التى لا تكون إلا لله . كما ينهى عن الفساد فى الأرض بالهوى ، وقد أصلحها الله بالشرعية . والنفس التى تضرع وتخضع خفية للقريب المجيب ، لا تعتدى كذلك ولا تفسد فى الأرض بعد إصلاحها . فبين الانفعاليين اتصال داخلى وثيق فى تكوين النفس والمشاعر . والمنهج القرآنى يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس ، وهو منهج من خلق ، الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

ويقول صاحب المنار : روى عن الحسن البصرى أنه قال : إن كان الرجل قد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه فى السر

فيكون علانية أبدًا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم خفية إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ اذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رضى فعله فقال : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (مريم) وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة .

﴿ إِنَّهُ لَا يَنُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ في الدعاء ، كما لا يجب ذلك في سائر الأشياء ، والاعتداء تجاوز الحدود فيها ، وقد نهى عنه مطلقًا ومقيّدًا ، إلا ما كان انتصافًا من معتمد ظالم بمثل ظلمه والعفو عنه أفضل ، والاعتداء في كل شيء يكون بحسبه وذلك أن لكل شيء حدًا من تجاوزه كان معتديا ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (البقرة : ٢٢٩) .

وبعد أن ذكر أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه على ما يشاء قدير ، يعود السياق ليعرفنا تعالى على ذاته من خلال عنايته ورعايته ورحمته بعباده ، ويذكرنا في الوقت نفسه باليوم الآخر ، فأخبر أنه هو الذي يرسل الرياح مبشرات بين يدي المطر الذي هو مظهر من مظاهر رحمته العظمى بخلقه ، حتى إذا حملت الرياح سحبًا ثقلاً أي من كثرة ما تحمل من الماء يسوقه الله إلى أرض مجدبة ميتة لا نبات فيها فيخرج به من كل الثمرات ، فكما يحیی الله هذه الأرض بعد موتها كذلك يحيی الأجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة ، فمن كان له قلب يتذكر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ - الله - تعالى - قادر على إخراج الموتى وإحيائهم للحساب والجزاء كما أحيا الأرض الميتة بالمطر فأخرجت النبات والثمار .

٢ - الدعاء من العبادة ، ويجب أن يتوجه الإنسان به إلى ربه في ضراعة ومذلة وخشوع ، طامعًا في ثوابه خائفًا من عقابه ، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم ، وإنما يتأدب مع الله في الدعاء دون استطالة على الله .

٣ - حرمة الإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله تعالى بالإسلام .

٤ - شر أنواع الاعتداء في الدعاء التوجه فيه إلى غير الله ولو ليشفع له عنده ؛ لأن الحنيف من يدعو الله - تعالى - وحده ، فلا يدعو معه غيره كما قال ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن : ١٨) .

٥ - البشر سادة هذه الأرض ، وهم منها كالقلب من الجسد والعقل من النفس ، فإذا صلحوا صلح كل شيء ، وإذا فسدوا فسد كل شيء ، وأشد الفساد الكبر والعتو ، الداعيان إلى الظلم والعلو .

معاني الكلمات :

نكدًا : قليلاً لا خير فيه . نصرف الآيات : نكررها بأساليب مختلفة . قال الملائ : السادة والرؤساء . قومًا عمين : عمى القلوب عن الحق والإيمان . سفاهة : خفة عقل وضلالة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف الفرق بين المؤمن والكافر من أثرهما وطبيعة كل منهما .
- ٢ - أن ندرك وحدة الرسالات السماوية في عقيدتها .
- ٣ - أن نعلم الهدف من الرسالات السماوية للبشر .
- ٤ - أن نعلم أن المعركة بين الحق والباطل ضرورية وحتمية لا مفر منها .



المحتوى التربوي :

تمضى الآيات في حديثها المتصل عن أقطار الكون وأسرار الوجود ، فيضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر بالبلد الطيب ، والبلد الخبيث ، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه سريعاً وحسنًا وطيباً ومباركاً ، وأما البلد الخبيث فإن نباته لا يخرج إلا خبيثاً لا خير فيه ، فكَذلك المؤمن ينزل على قلبه القرآن فينمو إيمانه وينمو الخير في قلبه ، وأما الكافر فلا يزيده الوحي إلا عناداً ويختم الله بالتذكير أنه يصرف الآيات لقوم يشكرون .

والشكر ينبع من القلب الطيب ، ويدل على الاستقبال الطيب ، والانفعال الطيب ، وهؤلاء الشاكرين الذين يحسنون التلقى والاستجابة تصرف الآيات : فهم الذين ينتفعون بها ، ويصلحون لها ، ويصلحون بها .

ثم تعرض الآيات رحلة موكب الإيمان الذي يواجه البشرية في رحلتها الطويلة ، كلما التوت بها الطريق ؛ وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم ؛ وكلما تفرقت بها السبل تحت ضغط الشهوات ، التي يقودها الشيطان محاولاً إضلالها عن هدى السماء ، ومحاولاً أن ينفذ وعيده .

ويمضي بنى آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم ، فإذا موكب الرسل الكرام حداة الطريق يلّوحون للبشرية بالنور ، ويستروحون بها ريح الجنة ، ويمجدونها لفحات السموم ، ونزعات الشيطان الرجيم ، عدوها القديم .

ويعرض سياق الآيات سير هذا الموكب البشرى النبوى وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق فيبدأ بنوح الذى دعا قومه إلى عبادة الله والالتزام برسالاته واتباع رسوله يقول صاحب الظلال : « إن دين الله منهج للحياة قاعدته أن يكون السلطان كله فى حياة الناس كلها لله ، وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألا يكون للناس إله غيره » .

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الوحيدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها فى إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفى صدق الرائد الناصح لأهله ، فهو يخاف عليهم عذاب يوم القيامة إذا لا قوا الله وهم مشركون به ، أو يوم نزول العذاب عليهم . فكان موقفهم منه هو اتهامه بالضللال والتكذيب .

وينفى نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يتدعها من أوهامه وأهوائه ، إنما هو رسول من رب العالمين يحمل لهم الرسالة ، ومعها النصح والأمانة ، ويعلم من الله ما لا يعلمون ، فهو موصول به ، وهم عنه محجوبون .

وكأنها القوم قد عجبوا أن يختار الله رسولا من البشر من بينهم ، يحمله رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول فى نفسه علما عن ربه لا يجده الآخرون ، ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة ، وهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ليظفروا فى النهاية برحمة الله ولا شىء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ولا هدف إلا هذا الهدف السامى .

ولكن الفطرة حيسن تبلغ حدًا معينًا من الفساد ، لا تتفكر ولا تدبر ولا تتذكر ، ولقد رأينا من عياهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير .. فبعياهم هذا كذبوا ، وبعياهم عوقبوا بالفرق ، وكانت النجاة لنوح ومن معه فى الفلك .

وتمضى عجلة التاريخ فإذا نحن أمام قوم عاد ، حيث أرسل إليهم الله تعالى نبيهم هودًا الذى دعا قومه إلى عبادة الله وتقواه وتذكر نعم الله عليهم ، فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة والكذب جميعا فى تخرج ولاحياء ، ولقد نفى عن نفسه السفاهة فى بساطة وصدق ، وبين لهم مصدر رسالته وأنه رسول من رب العالمين .

قال الزمخشري : « ترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم - أدب حسن ... وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ... على ما يكون منهم » .

يقول صاحب الظلال : إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة ، ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة ، وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك فيهلك من يهلك ويحيا من يحيا ، والذين يحيون هم الذين آبا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلهًا واحدًا ، هم الذين سمعوا قول كل رسول ﴿ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ فهي حقيقة واحدة ، يقوم عليها الدين كله ، ويتعاقب بها الرسل على مدار التاريخ .

* إن كل رسول من الرسل - صلوات الله عليهم جميعاً - قد جاء إلى قومه ، بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه . فبنو آدم الأوائل نشؤوا موحدين لرب العالمين - كما كانت عقيدة آدم وزوجه - ثم انحرفوا - حتى إذا جاء نوح عليه السلام دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى .

ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين - كما علمهم نوح - وبذرارهم . حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم .. حتى إذا جاء هود أهلك الله المكذبين بالريح العقيم .. ثم تكررت القصة .. وهكذا ...

* إن هذا القصص يصور طبيعة الكفر في نفوس البشر ؛ ويعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان ، ونموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر أيضاً .. إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله ، ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليلغهم وينذرهم ، فأما الذين كفروا بكل رسول ، فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا على السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - المؤمن كثير النفع أينما وجد ، والكافر خبيث لا نفع فيه لأحد .
- ٢ - جميع الرسل دعوا أقوامهم إلى عبادة الله وحده ، وحذروهم من الشرك .
- ٣ - إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ ، إنما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله وإلى الحقيقة المركوزة في فطرة البشر ، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله .
- ٤ - التركيز في كل رسالة سماوية كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده - رب العالمين - ونزع السلطان كله من الطواغيت التي تدعيه ، وهو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر .

٥ - على الدعاة مواجهة الباطل ، والصبر على خوض المعركة معه ، فإنها حتمية ، وانتظار فتح الله والدعاء بدعاء شعيب عليه السلام - ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

معاني الكلمات :

بسطة : قوة وعظم جسم . آلاء الله : نعمة
وفضله الكثير . نذر : ترك . رجس :
عذاب أو غشاوة على القلوب .

غضب : لعن وطرده أو سخط . قطعنا دابر :
أهلكنا آخرهم . ناقة الله : خلقها الله من
صخر لا من أبوين . آية : معجزة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف أن الرسل جميعاً دينهم
واحد ورسالتهم واحدة ودعوتهم واحدة
فربهم واحد ودينهم الإسلام وغايتهم
هداية البشر .

٢ - أن نتخلق بخلق المرسلين من صبر
ونصح وصدق وأمانة .

٣ - أن نتعظ بمصارع الهالكين ،



ونستبشر بعاقبة المتقين .

المحتوى التربوي :

يبين السياق وظيفه الرسول وحاله عليه السلام فيها ، أى أبلغكم التكليف الى أرسلت بها والحال
أننى أنا لكم ناصح فيما أبلغكم إياه ، وأدعوكم إليه ؛ لأن فيه سعادتكم ، أمين على ما أقول فيه
عن الله تعالى ، فإننى لا أكذب عليكم فكيف أكذب على ربي عز وجل .

وعجبوا كما عجب قوم نوح من قبل من تلك الرسالة ، فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من
قبل : ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ، ويذكرهم بآلاء الله
عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وزادهم في الخلق قوة وبسطة ، ولكن الفطرة حين
تنحرف لا تتفكر ، ولا تدبر ولا تتذكر تأخذها العزة بالإثم ، واختصروا الجدل ، واستعجلوا
العذاب استعجال من يستثقل النصح ، ويهزأ بالإنذار ، يقول صاحب الظلال : « إنه مشهد
بائس لاستعباد اواقع المألوف للقلوب والعقول ، هذا الاستعباد الذى يسلب الإنسان خصائص
الإنسان الأصلية : حرية التدبر والنظر ، وحرية التفكير والاعتقاد ، ويدعه عبداً للعادة والتقليد ،
وعبداً للعرف والمألوف ، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل
باب للمعرفة ، وكل نافذة للنور » والمعنى كما يقول صاحب المنار : « أجبنا لأجل أن نعبد الله

وحده على ما نحن عليه من الآثام ، وترك ما كان يعبد آبائنا معه من الأولياء والشفعاء ، فنحقرهم ونمتهم برميهم بالكفر ونحقر أوليانا وشفعاءنا عند الله بترك التوجه إليهم عند التوجه إليه ، وهم الوسيلة ، وهو المقصود بالدعاء والاستغاثة بهم ، والتعظيم لصورهم وتمثيلهم وقبورهم والنذر لهم ، وذبح القرابين عندهم ؟ وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم ؟ استنكروا التوحيد واحتجوا عيه بما أبطله الشرع والعقل من التقليد واستعجلوا الوعيد . ومن ثم كان الجواب حاسماً وسريعاً في رد الرسول : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ الآية . فأبلغهم العقابة التي أنبأها ربهم ، والتي قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص ، إنه العذاب الذي لا دافع له ، وغضب الله المصاحب له .

ولا يطول الانتظار في السياق بعد أن بين لهم زيف ما يدعون فيأتيهم الحق الكامل الذي لا يتخلف منه أحد ، وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد في الركب يتبع أدبار القوم !

وهكذا طويت صفحة من صفحات المكذبين وتحقق النذير مرة أخرى بعد إذ لم ينفع التذكير وتفتتح صفحة أخرى ومشهد من مشاهد جولات الحق والباطل ، وصورة المصراع جديد من مصارع المكذبين قوم صالح فقد دعا قومه إلى عبادة الله وتذكر نعمه ، وأنهم بالمعجزة الشاهدة على صحة رسالته وهى الناقة ؛ فأصروا على الكفر والاستكبار والصد عن سبيل الله عز وجل وقتلوا الناقة ، فعاقبهم الله بالزلزال والصيحة فماتوا أجمعين ، ونجى الله صالحاً والمؤمنين .

وسياق الآيات في عرض قصة صالح عليه السلام . يستعرض سريعاً الدعوة ، وعاقبة الإيمان بها ، وعاقبة التكذيب ، ولا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة ، بل يعلن وجودها عقب الدعوة ، ولا يذكر تفصيلاً عن الناقة أكثر من أنها بينة من ربهم ، وأنها ناقة الله وفيها آية منه ، وكما يقول صاحب الظلال : نستلهم من هذا الإسناد أنها ناقة غير عادية ، أو أنها أخرجت لهم إخراجاً غير عادى ، مما يجعلها بينة من ربهم ، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى ، ويجعلها آية على صدق نبوته ، ويخبرهم صالح أنها ناقة الله ، فذروها تأكل في أرض الله ، وإلا فهو النذير بسوء المصير .

قال صاحب النار : « وفي البخارى عنه عليه السلام أمرهم أن يستقوا منها ويهريقوا ما استقوا من غيرها من تلك الآبار » قال العلماء : وقد علمها بالوحى ، ولا يصح شئ يحتاج به في خلق الناقة من الصخرة أو من هضبة من الأرض كما روى عن أبى الطفيل .

قال ابن كثير : قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله ، ويقول صاحب الأساس في التفسير : وعائر المذكور في النسب يسميه سفر التكوين « جاثر » والمساكن التي ذكرها ابن كثير لا زالت موجودة ، وهى تثير دهشة الناظر للجهد الذى

بذل فيها ولبقائها هذه الآلاف من السنين ، وكأنها الآن منحوتة ، والرحلة إليها سهلة ، وقد علمنا رسول الله كيف يكون أدب المسلم . إذ رأى ديار الظالمين الهالكين أو مرَّ بها ، فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر « لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

ويعلمنا ﷺ بمناسبة قصة ثمود ألا نسأل الله آية ، فقد روى الإمام أحمد عن جابر قال : لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الله الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ، ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أخذ الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله ، فقالوا من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » ، وهذا الحديث على شرط مسلم .

يقول صاحب الظلال : لقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه فقال : ﴿ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، وقال كل رسول لقومه : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ، معبراً عن ثقل التبعية ؛ وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة ورغبته في هداية قومه ، وهو منهم وهم منه ، وفي كل مرة وقف « الملأ » من عليه القوم . وكبرائهم في وجه كلمة الحق هذه ؛ ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين ، وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده - وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها ، وقام عليها دين الله كله ، وهنا يصدع كل رسول بالحق في وجه الطاغوت ، ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة ، وتنبئ وشيجة القومية ، ووشيجة القرابة العائلية ؛ لتقوم وشيجة العقيدة وحدها ، وإذا « القوم » الواحد ، أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة ! وعندئذ يجيء الفتح ، ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، يأخذ المكذبين المستكبرين ، وينجي الطائعين المستسلمين . وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة ، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده . وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمانهم . وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم ، وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الله - تعالى - أرسل رسله بالحق ؛ ليرشدوا الناس إلى التوحيد ؛ وليخلصوهم من الشرك وطريق الشيطان الرجيم .

٢ - من صفات الرسل والدعاة إلى الله : التبليغ والنصح والصدق والأمانة .

٣ - يجب أن نتعظ بمن سبقنا من الأمم ، حتى لا نفع فيها وقعوا فيه فيصيبنا ما أصابهم .

معاني الكلمات :

- بواكم : أسكنكم وأنزلكم .
 في الأرض : الحجر بين الحجاز والشام .
 آلاء الله : نعمة الله وفضله الكثير .
 تعثوا : لا تفسدوا إفساداً شديداً .
 الملأ : السادة من القوم . عقرو الناقة :
 قتلوها . عتوا : استكبروا .
 الرجفة : الزلزلة الشديدة .
 جاثمين : هامين موتى لا حراك بهم .
 تولى : انصرف وأعرض .
 الأهداف الإجرائية والسلوكية :
 ١ - أن تتخلق بأخلاق الرسل في دعوة
 أقوامهم لله رب العالمين .
 ٢ - أن نعرف طبيعة طريق الدعوة إلى
 الله ونهض بأعباء الطريق .



٣ - أن نؤكد على ثواب الفطرة في الزواج ونقاوم الانحراف والشذوذ بكل صوره في الحياة .

المحتوى التربوي :

وتحصى أحداث قصة صالح عليه السلام مع قومه وبعد عرض الآية - وهي الناقة - والإنذار بالعاقبة ، يأخذ صالح في النصيح لقومه بالتدبر والتذكر ، والنظر في مصارع الغابرين ، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين الهالكين : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ الآية .

ويقول صاحب الظلال : ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود ، ولكنه يذكر في سورة أخرى أنهم كانوا في الحجر - وهي بين الحجاز والشام ، ونلمح من تذكير صالح لهم أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذي يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور ، وينحتون في الجبال البيوت . فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير ، وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها ، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتداد خارج الحجر أيضاً . وبذلك صاروا خلفاء مكنين في الأرض ، محكمين فيها ، هو ينهاتهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد ، اغتراراً بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين !

ويختصر السياق القصة فقد آمنت طائفة من قوم صالح ، واستكبرت طائفة والملا آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان في الأرض ، وترده إلى إله واحد هو رب العالمين ! ولا بد أن يحاولوا فتنه المؤمنين الذين خلعوا ربة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحروا بذلك من العبودية للعبيد !

فنرى الآيات نخبرنا بالملا الذين استكبروا من قوم صالح وهم يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنِّي صَلِّحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّي ﴾ .

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولاستنكار إيمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً ! لقد سكب الإيثار بالله القوة في قلوبهم ، والثقة في نفوسهم ، والاطمئنان في منطقتهم .. فهم على يقين من منطقتهم وأمرهم ، فإذا يُجدي التهديد والتخويف ، . ومن ثم يعلن المؤمنون ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴾ ، ويعلن الملا المستكبرون ﴿ إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ ﴾ على الرغم من البيئة التي جاءهم بها صالح ، والتي لا تدع ريبة لمستريب ، وأتبعوا القول بالعمل ، فاعتدوا على ناقة الله التي جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه في دعواه ، والتي حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم .

ولكنه التبجح الذي يصاحب المعصية ، ويعبر عن العصيان ، والعتو الذي يظهر الكفر والتحدى باستعجال العذاب والاستهتار ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ويعالجهم الله بالعذاب الذي كانوا يستعجلون جزاء العتو والتبجح « فأخذتهم الرجفة » الذي يصاحبها الفزع ، وما أجدر العاتى أن يرتجف ويعجز ويحشم بلا حراك ، ويدعهم الله على هيئتهم ﴿ جَثْمِينَ ﴾ .

إنه التبجح الذي يصاحب المعصية ، ويعبر عن عصيانهم بقوله : ﴿ وَعَتَوْا ﴾ لإبراز سمة التبجح فيها ، وليصور الشعور النفسى المصاحب لها ، والذي يعبر عنه كذلك التحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالتدبر ، ولا يستأنى السياق في إعلان الخاتمة ، ولا يفصل كذلك ، فالرجفة تأخذهم ، وكما قال صاحب النار : « لنزول الصاعقة صيحة شديدة القوة والطغيان ، ترجف من وقعها الأفئدة ، وتضطرب أعصاب الأبدان » ، ثم لم يلبث القوم وقد وقعت الصاعقة بهم أن سقطوا مصعوقين ، وجثموا هامدين خامدين ، وأصبحوا إما بمعنى صاروا ، وإما بمعنى دخلوا في وقت الصباح حال كونهم جاثمين .

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح ، فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك ، وما أجدر العاتى أن يرتجف ، وما أجدر المعتدى أن يعجز ، جزاء وفاقا في المصير ، ويدعهم السياق على هيئتهم ﴿ جَثْمِينَ ﴾ ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبه وتحذوه وقد تولى عنهم قائلاً : ﴿ يَنْقُورُ لَقَدْ أُلْغِئْتُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَتَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَيْكُنْ لَا تُحْيُونَ

النَّصِيحِينَ ﴿ وَهَكَذَا تَطْوِي صَفْحَةً أُخْرَى مِنْ صَحَائِفِ الْمَكْذِبِينَ ، وَيَحِقُّ النَّذِيرُ بَعْدَ التَّذْكِيرِ عَلَى الْمُسْتَهِزِّينَ .

ويفتح السياق صفحة جديدة ، ولا يراعى التسلسل الزمني للأحداث والأمم والرسل ؛ لأنه يتحرى مصارع المكذبين معدداً : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ فلم يتعرض السياق هنا لقصة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنهم لم يهلكوا ؛ لأن إبراهيم عليه السلام لم يطلب من ربه هلاكهم ، بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله لذا قفز السياق مباشرة إلى قصة قوم لوط ليعرض لنا هلاكهم ويصور لنا انحرافهم ، فقد دعاهم إلى ترك إتيان الرجال وهي الفاحشة التي لم تعرفها البشرية قبلهم ، فكان موقف قومه تكذيبه وتهديده بالإخراج من قريتهم فعاقبهم الله فأمطر عليهم حجارة من السماء أهلكتهم وخسف بقراهم ، وأنجى الله لوطاً والمؤمنين .

ويبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط ، حتى إن لوطاً ليواجههم بأنهم بدعٌ دون خلق الله فيها ، وأنهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين ، وأنهم مسرفون في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية ، ويدفعهم بالإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياهم ، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا هم يريقونها ويبعثونها في غير موضع الإخصاب ، فهي مجرد « شهوة » شاذة ؛ لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة . فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري قبل أن يكون فساد الأخلاق . ولا فرق في الحقيقة . فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد .

يقول صاحب الظلال : « إن الاعتقاد في الله الواحد يقود إلى الإسلام لسنته وشرعه ، وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكراً وأنثى ، وأن يجعلها شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما ، وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل ، وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء ، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء - مجهزين عضويًا ونفسيًا لهذا الالتقاء وجعل اللذة التي لا ينالونها عندئذ عميقة ، والرغبة في إتيانها أصلية ، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله في امتداد الحياة ، ثم لتكون هذه الرغبة الأصلية وتلك اللذة العميقة دافعا في مقابل المتاعب التي يلقيانها بعد ذلك في الذرية ... ثم لتكون كذلك ضمنا لبقائهما ملتصقين في أسرة .. » .

ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

١ - على الدعاة إلى الله الصبر والثبات على الحق ، وتحمل الإيذاء في سبيل الدعوة فهذا طريق الأنبياء والمرسلين .

٢ - على الدعاة إلى الله أن يرفقوا بالمدعويين ، ويصبروا على أذاهم ، ولا يدخروا جهداً في هدايتهم ودعوتهم إلى الخير كما فعل أنبياء الله والدعاة المخلصون .

٣ - لذة الفطرة الصادقة تكون في تحقيق سنة الله الطبيعية من عقد الزواج ، ووضع النطفة في موضع الإخصاب ، وأداء الدور المطلوب في امتداد البشر ونمو الحياة وما عدا ذلك فهو الشذوذ والانحراف والفساد وانتظار الهلاك .

معاني الكلمات :

يتطهرون : يَدْعُونَ الطَّهَّارَةَ مما نأتى .

الغابرين : الباقيين في العذاب كأمثالها .

لا تبخسوا : لا تنقصوا . صراط : طريق .

تبتغونها عوجاً : تطلبونها معوجة .

طائفة : جماعة .

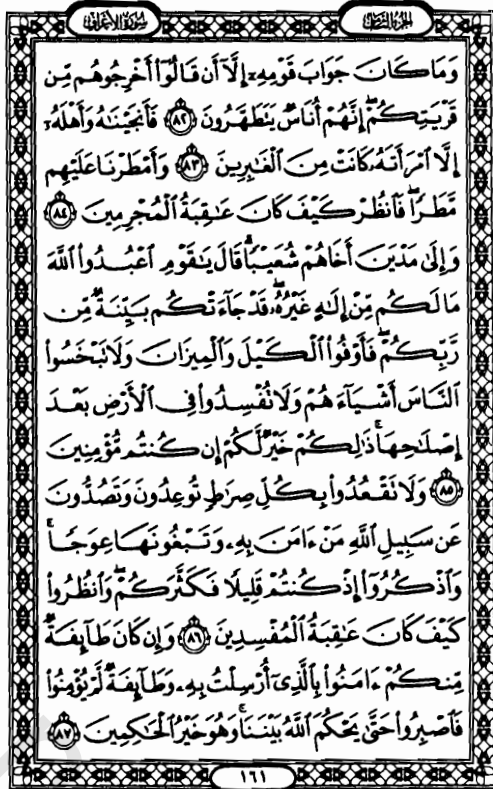
الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نحذر الانحراف عن الفطرة السوية ومجازة الحد في الحدود .

٢ - أن ننضبط في معاملاتنا المالية مع الآخرين .

٣ - أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ولا نصد الناس عن سبيل الله .

٤ - ألا نسرف في الأقوال والأفعال



فهذا أصل كل شر وفساد .

المحتوى التربوي :

ونعود إلى قوم لوط مرة أخرى ، ويظهر لنا الانحراف في فطرتهم من خلال جوابهم العجيب لنبیهم ، فهم يريدون أن يخرجوا من يتطهر من القرية إخراجاً ، ليبقى فيها الملوثون المدنسون ويقول صاحب الظلال - رحمه الله : ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون ، فلا ينغمسون في الوحل ، الذى تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية الحديثة وتسميه تقدمة وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة - أليست تطاردتهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ؟ ولا تطيق أن تراهم يتطهرون ؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين ؟ ! إنه منطق الجاهلية في كل حين .

قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : « لم يثبت عنه ﷺ أن قضى في اللواط بشيء ؛ لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه قال : « اقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن الأربعة ، وإسناده صحيح - وقال الترمذی : حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق ، وكتب به إلى خالد بعد مشاورة الصحابة ، وكان على كرم الله وجهه أشدهم في ذلك » .

وتعرض الآيات خاتمة هؤلاء القوم بلا تفصيل ولا تطويل وكأنها رغبة من المولى عز وجل في طي هذه الصفحة المخجلة من تاريخ البشرية ، فيقرر النجاة لمن تهددهم العصاة ، ويفصل من

الهلاك ، لأن صلتها كانت بالغابرين المهلكين من قومه في المنهج والاعتقاد وقد أمطرهم الله مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف ، وكأنه لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذى كانوا فيه ، والوحل الذى عاشوا وماتوا فيه ؟ بين القوم ، على أساس العقيدة والمنهج فامرأته وهى ألصق الناس به لم تنج من الهلاك !

وبعد طى هذه الصفحة المقيتة من تاريخ البشرية تأتى الصفحة الأخيرة من صحائف الأقوام المكذبة والضالة عن هدى السماء ، والمناوئة لسلطان الله فى الأرض ، صفحة مدين والنبي الصالح شعيب عليه السلام .

وثمة شىء نلاحظه فى هذه القصة من الإطالة ، بالقياس إلى نظائرها فى هذا الموضع ، وذلك لأنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئاً عن المعاملات ، ولقد جاء يدعوهم لتوفية الكيل والميزان ، وينهاهم عن الإفساد فى الأرض والكف من قطع الطريق على الناس ، وعن فتنه المؤمنين عن دينهم الذى ارتضوه .

وندرك من النهى أن قوم شعيب ، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده ، إنما يشركون معه عباده فى سلطانه ؛ وأنهم ما كانوا يرجعون فى معاملاتهم إلى شرع الله العادل ؛ إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل - ولعل شركهم إنما كان فى هذه الخصلة ، وأنهم لذلك كانوا سيئى المعاملة فى البيع والشراء ، كما كانوا مفسدين فى الأرض ، يقطعون الطريق على من سواهم ، ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ويكرهون الاستقامة التى فى سبيل الله ؛ ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لا تضى على استقامتها كما هى فى منهج الله .

ويبدأ شعيب عليه السلام بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية ، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان فى أمر الحياة كله ، ويستصحب فى دعوتهم إلى الدينونة لله وحده ، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الإفساد فى الأرض بالهوى بعد ما أصلحها الله بالشرعية ، يستصحب فى دعوتهم إلى هذا كله تذكيرهم بنعم الله عليهم ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ﴾ ، ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم ﴿ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر ؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهاددين لهم موعدين ، وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين ، إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين .

يقول صاحب المنار : « إنه عليه السلام قد بدأ بدعوتهم إلى توحيد العبادة ؛ لأنه ركن الدين الأعظم الذى هدمته الوثنية ، وثنى بالأوامر والنواهي المتعلقة بما لهم الغالبة عليهم ، وأما هذا النهى عن قطعهم الطرق على من يغشى مجلسه عليه السلام ، ويسمع دعوته ويؤمن به فلم يؤخره ؛ لأن اقترافه دون اقتراف التطفيف فى الكيل والميزان وبخس الحقوق ، بل لأنه متأخر عنها فى الزمن ،

فالدعوة قد وجهت أولاً إلى أقرب الناس إليه في بلده ، ثم إلى الأقرب فالأقرب منهم ، ومن يزور أرضهم ، وقد كان الأقربون داراهم الأبعدين استجابة له في الأكثر ، وتلك سنة الله في الخلق ... والحاصل أنه نهاهم هنا عن ثلاثة أشياء :

أولها : تعودهم على الطرقات التي توصل إليه يخوفون من يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته .

ثانياً : صدّهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والإسلام والاستقامة على سبيل الله تعالى الموصلة إلى سعادة الدارين .

ثالثها : ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عوج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها .. » .

لقد دعاهم إلى أعدل خطة ، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعاشير بغير أذى ، وترك كل ما اعتنق من دين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت ، إن وجود جماعة مسلمة في الأرض ، لا تدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا بسلطانه ، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه ، إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة على نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي مواعده .

ويقول صاحب الظلال : إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة ، حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة ، إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل ، إنه سنة الله لا بد أن تجرى .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - لا ينفع الإنسان يوم القيامة حسب ولا نسب ، وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح .
- ٢ - ضرورة توفية الكيل والميزان ، وإعطاء كل ذي حق حقه .
- ٣ - الإسراف وعدم الاعتدال في الأقوال والأفعال يتولد عنه كل شر وفساد .
- ٤ - الكفر والإجرام محل رابطة الأخوة والقربة بين أصحابه والبراء منه .
- ٥ - حرمة الفساد في الأرض بالمعصية بعد أن أصلحها الله بالإسلام ، وطهرها بشرائعه .
- ٦ - حرمة التطفيف في الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ويدخل في ذلك الصناعات والحرف والمهن وما إلى ذلك .
- ٧ - حرمة الصد عن سبيل الله ، بمنع الناس من التدين والالتزام بالشرعية ظاهراً أو باطناً .

معاني الكلمات :

افتح : احكم واقض . الرجفة : الزلزلة
الشديدة . جاثمين : هامدين . لم يغنوا فيها :
لم يقيموا في ديارهم متمتعين . آسى : أحزن .
يضرعون : يتذللون ويخضعون . عفوا :
كثروا وزادوا . بغتة : فجأة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف أن الابتلاء سنة من سنن الدعوات .
- ٢ - أن نأخذ الزاد من جهاد وصبر الأنبياء والمرسلين .
- ٣ - أن نتق في موعود الله بالنصر لدينه وللمؤمنين .



المحتوى التربوي :

تصف الآيات التبجح السافر من ملائكة شعيب عليه السلام ، وإصرارهم على معركة لا تقبل المهانة ، أو التعايش وأعلنوها صريحة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ ؛ إلا أن قوة العقيدة لا تتعلم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد .

لقد وقف شعيب عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة ، نقطة المسألة والتعايش - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء وأن يدين للسلطان الذي يشاء : في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين - وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أي ضغط ، أو أي تهديد من الطواغيت ، وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه .

فلما أن تلقى الملائكة المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم، أو العودة في ملتهم، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعو ويستنصره ويسأله وعده بنصره الحق وأهله .

يقول صاحب الظلال : « إن الذى يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية التى لا يخلص فيها الدينونة والطاعة لله وحده ، والتى يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله .

إن الذى يعود إلى هذه الملة - بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهده إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد - إنما يؤدى شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ! أو مؤداها - على الأقل - أن ملة الطاغوت حقاً في الوجود ، وشرعية في السلطان ؛ وأن وجودها لا يتنافى مع الإيذان بالله فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله وهى شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام شهادة الاعتراف براءة الطغيان ، ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة !

إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام ، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهى عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيذان أن يستنفذ جميع قواه ومساغيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضي عند الله الذى به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها .

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة : ﴿ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ۖ ﴾ ويفوض الأمر لله رب العالمين ، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ، فالأمر موكل إلى هذه المشيئة ، وهو الذين آمنوا معه لا يعلمون أن ربهم وسع كل شيء علماً ، فإلى علمه ومشيته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولى الله مع الله ، الأدب الذى يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره ، وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الوائق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق . ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۖ ﴾ .

وعندئذ يتوجه الملائكة الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم ، ليفتنوهم عن دينهم ، ولكن من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجها لوجه في مفاصلة كاملة تجرى سنة الله التى لا تتخلف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ۖ ﴾ .

ويرد الله - تعالى - على قولتهم : ﴿ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا يَنْكُرُ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ وهى التى قالوها مهتدين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ! فيقرر - فى تهكم واضح - أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً ، إنما كان من نصيب قوم آخرين ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

ويطوى صفحتهم مُشبعة بالتبكي والإهمال ، والمفارقة والانفصال من رسولهم الذى كان أخاهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم وهلاكهم فى الغابرين .

ويختتم المولى - عز وجل - قصص هذه الأمم المكذبة ببيان سنته التى جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين فى كل قرية وهى أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء ، لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله وتعرف حقيقة ألوهيته ، فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء وفتح عليهم الأبواب ، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون كل ذلك للابتلاء .

حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة وحسبوا أن الأمور تمضى جزافاً بلا قصد ولا غاية ، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء ، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل ؛ لأن الأمور تمضى هكذا بلا تدبير : ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ! أَخَذَهُمُ اللَّهُ بَغْتَةً ، وَهُمْ سَادِرُونَ فى هذه الغفلة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - ما يبتلى الله به عباده من المصائب والنكبات ، إنما هو بسبب بُعدهم عن الله وعن منهجه ، وبكثرة ذنوبهم ومعاصيهم .

٢ - على الدعاة الصبر والثبات على الحق مهما لاقوا من العناد والمكابرة والتهديد والتعذيب من الظالمين ، وليصبروا كما صبر أولو العزم من الرسل .

٣ - الله - عز وجل - ينصر دينه وينزل عقابه بأعدائه وأعداء دينه ، وسيقتصر هذا الدين - دائماً - ما نصره أهله . وسيعزه الله ما أعزه أهله وتمسكوا به .

٤ - دعوة الرسل جميعاً واحدة - عليهم الصلاة والسلام - دعوة واحدة ودينهم دين واحد ، يدعو إلى عبادة الله وحده .

معانى الكلمات :

لفتحنا عليهم : ليسرنا عليهم . يأتيهم بأسنا : ينزل بهم عذابنا . بياتا : ليلاً .

مكر الله : عقوبته واستدراجه . نطبع : نختم . فظلموا بها : فكفروا بالآيات .

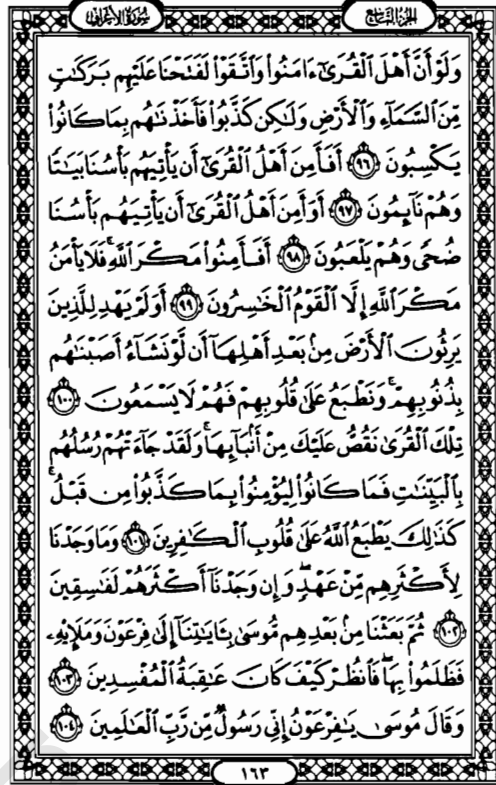
الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف دلائل الإيمان ومقتضياته في حياتنا .

٢ - أن نعرف أسباب البركة والرزق ونحرص على تحقيقها .

٣ - أن نفهم سنن الله الجارية في هلاك الأمم والظالمين .

٤ - أن نحذر مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .



المحتوى التربوى :

تحدث الآيات عن الطرف الثانى لسنة الله الجارية ، فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب ، واتقوا بدل الاستهتار ؛ ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، هكذا ، بركات من السماء والأرض مفتوحة بلا حساب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وتظهر هنا حقيقة هامة جداً وهى أن العقيدة الإيمانية فى الله ، وتقواه ، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة ، وعن خط تاريخ الإنسان ؛ إن الإيمان بالله وتقواه ، ليؤهلان بفضى من بركات السماء والأرض وعدا من الله ، ومن أوفى بعهده من الله ؟

يقول صاحب الظلال : « إن الإيمان بالله دليل على حيوية الفطرة ، وسلامة فى أجهزة الاستقبال الفطرية ، وصدق فى الإدراك الإنسانى ، وحيوية فى البنية البشرية ، والإيمان بالله قوة دافعة دافقة ، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها وتطلقها تستمد من قوة الله ، وتعمل لتحقيق مشيئته فى خلافة الأرض وعمارتها ، وفى دفع الفساد والفتنة عنها ، وفى ترقية الحياة ونمائها ، وهذه كذلك من مؤهلات النجاح فى الحياة الواقعية .

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد ، وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله ، أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة . من العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً !

شبهة الرد عليها : ولقد ينظر بعض الناس فيرى أعماً - يقولون : إنهم مسلمون - مضيقاً عليهم في الرزق ، لا يجدون إلا الجذب والمحق ! ويرى أعماً لا يؤمنون ولا يتقون ، مفتوحاً عليهم في الرزق ، والقوة والنفوذ .. فيتساءل : وأين إذن السنة التي لا تتخلف ؟ ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال !

إن أولئك الذين يقولون : إنهم مسلمون ، لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله ! إنهم يسلمون رقابهم لعييد منهم ، يتألهون عليهم ، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما أولئك بالمؤمنين ، فالمؤمن لا يدع عبداً من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبداً من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره ، ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً ، دانت لهم الدنيا ، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض ، وتحقق لهم وعد الله .

فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق ، فهذه هي السنة ﴿ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيْفَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ ! فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره . وهو أخطر من الابتلاء بالشدة .

وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله لمن يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضا والارتياح ، وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة ، مهددة في أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق ، وينتظرها الانحلال هي في قوة بلا أمن ، وهو متاع بلا رضا ، وهي وفرة بلا صلاح وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد ، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال .

وبعد أن يقرر السياق القرآني تلك السنة الجارية ، في هذه اللحظة يتجه إلى الغافلين السادرين ، يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله في أية لحظة من ليل أو نهار ، وهم سادرون في النوم والهوى والمتاع .

ويؤكد على سنة أخرى وهي أنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسران ، وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون الخسران ! أفأمنوا مكر الله ؟ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين ، الذين هلكوا بذنوبهم ، وجنت عليهم غفلتهم ؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم ؟

يقول صاحب الظلال : « والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح في الدنيا والآخرة إذغهم أرفهوا حساسيتهم به ، فهو يدعوهم إلى الأمن في جوار الله لا في جوار النعيم

المادى المغرى ، وإلى الثقة بقوة الله لا بقوتهم المادية الزائلة وإلى الركون إلى ما عند الله لا إلى ما يملكون من عرض الدنيا .

إن سنة الله لا تتخلف ، ومشيتته لا تتوقف ، فما الذى يؤمنهم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ؟

ثم تلمس الآيات الوجدان البشرى وتطلعه على العاقبة الشاملة لابتلاء تلك القرى وما تكشف عنه من حقائق عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان ، ثم طبيعة هؤلاء البشر الذين طبع الله على قلوبهم ، فلم تنفعهم البينات ، وظلوا يكذبون بعدها ، كما كذبوا قبلها ، ولم يؤمنوا بما كانوا قد كذبوا به من قبل أن تأتيهم البينة عليه ، وهذا يكشف عن طبيعة فيهم غالبية وهى ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ ومنحرفين عن دين الله ، وهذه ثمرة التقلب ونقض العهد ، واتباع الهوى .

ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله ، مستقيماً على طريقته ، مسترشداً بهداه ، فلا بد أن تفرق به السبل ، ولا بد أن ينحرف ، ويضل سواء السبيل .

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ، بعد تلك القرى وما حل بها وبالمكذبين من أهلها ، حيث توالى الأحداث ، وجاءت بعثة موسى ، ويعجل السياق بالعاقبة التى انتهوا إليها - فلقد ظلموا بآيات الله وكفروا وجحدوا بها ، ثم تبدأ القصة بالمشهد الأول بين الحق والباطل ، فيخاطب موسى عليه السلام فرعون بالحقيقة التى جاء بها كل رسول قبله . حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعاً .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفسير : فى قوله تعالى : ﴿ فَظَلَمُوا ﴾ : « الظلم يشمل ظلم الرعية ، ويشمل الظلم فى العقيدة بالشرك ، وإن الشرك لظلم عظيم » .
ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

- ١ - الإيمان بالله وتقواه ، واجتناب المعاصى سبيل إلى زيادة الخير وسعة الرزق .
- ٢ - الله - تعالى - يمهل عباده ويستدرجهم بالنعمة حتى يهلكوا فى غفلتهم .
- ٣ - المؤمن يعمل الطاعات وهو مشفق خائف من عدم القبول ، والفاجر يعمل المعاصى وهو مطمئن آمن لا يخشى عاقبتها .
- ٤ - إذا أمنت الأمة مكر الله تهيأت للخسران وحل بها لا محالة .
- ٥ - علينا أن نعتبر بما أصاب الأولين ، ونخشى مصارع الطغاة والهاككين ، وذلك بترك ما كان سبباً لهلاكهم وبجهلنا سنن الله فى هلاك الأمم والظالمين .

معانى الكلمات :

حقيق : حريص . مبين : أمره ظاهر .

الملأ : الرؤساء .

أرجه : أخر أمر عقوبته .

حاشرين : جامعين . استرهبوهم : خوفوهم
تخويفاً . ما يافكون : ما يكذبونه .

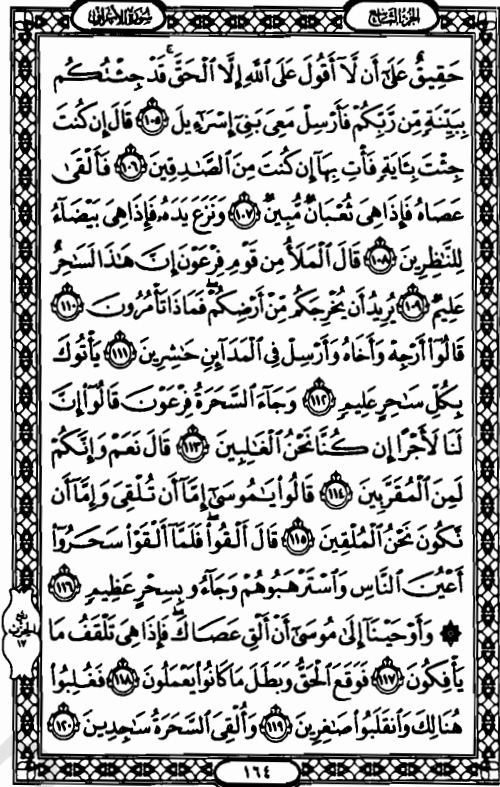
صاغرين : مذلولين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نقف على الدروس والعبر من
قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه .

٢ - أن نعرف الحكم في السحر ومن
يبارسه .

٣ - أن نعلم سنة الله في مواجهة الحق
للباطل .



المحتوى التربوى :

تواصل الآيات قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون ، وقد جاءه يخبر برسالة ربه إليه ، وأنه ملزم ومأخوذ بقول الحق على ربه الذى أرسله ؛ فما كان الرسول الذى يعلم حقيقة الله ، ليقول عليه إلا الحق ، وهو قدره ؛ ويجد حقيقته - سبحانه في نفسه - ثم أخبره أن معه الحجة القاطعة التى تشهد على أنه رسول الله ، وتدلل على صدقة فيما جاء به .

وبناءً على ذلك فإنه يطلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل مطلقاً سراحهم من أسرهم وقهره ، تاركاً إياهم ليعبدوا ربهم ، وعندئذ أظهر فرعون تشككه وعدم تصديقه ورفضه لما طُلب منه ؛ وطلب من موسى إن كانت معه حجة أن يظهرها إن كان صادقاً فيما ادعى، وعندئذ أظهر موسى معجزتيه الرئيسيتين إلى فرعون: إلقاء العصا فتتحول حية عظيمة بإذن الله ، وإخراج يده من ثوبه بعد ما أدخلها فيه ، فإذا هى بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض يراها كل من نظر إليها .

ولما أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة عندئذ اتفق هو ومن حوله من بطانته على اعتبار أن ما صدر عن موسى سحر ، وأن الهدف من هذا السحر هو إخراج المصريين من أرضهم ، وتشاوروا في أمرهم كيف يصنعون ، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره ، وإخماد كلمته ، وظهور كذبه وافتراءه ، وتخوفوا أن يستميل الناس فيما أظهره ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم .

وقد استقر رأى الملأ من قوم فرعون ، على أن يرجئ فرعون موسى إلى موعد ، وأن يرسل فى أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة - ذلك ليواجهوا سحر موسى - بزعمهم بسحر مثله ، وكان ذلك ، وجمع السحرة ، وتشارط السحرة فرعون : أنهم إن غلبوا موسى ليشينهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً ، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه المقربين .

فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ : « السحرة محترفون .. يحترفون السحرة كما يحترفون الكهانة ، والأجر هو هدف الاختلاف فى هذا وذاك ! وخدمة سلطان بالباطل هى وظيفة المحترفين من رجال الدين ، وكلما انحرفت الأوضاع احتاج الظلمة إلى مدهنين لهم من رجال الدين يرسمون باسم الدين ظلمهم ، وهؤلاء الظلمة يعطونهم المال ويجعلونهم من المقربين .

ولقد اطمأن السحرة على الأجر ، واشترأت أعناقهم إلى القرب من فرعون ، واستعدوا للحلبة ، وكانت المواجهة التى بدأت بالتخير .

ويقول صاحب الظلال : ويبدو التحدى واضحاً فى تخييرهم لموسى ، وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة ، وفى الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى ﷺ واستهانته بالتحدى : ﴿ قَالَ أَلْقُوا ﴾ ، فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة وعظم الثقة الكامنة فى نفس موسى ﷺ .

وحدثت المفاجأة فإذا بالباطل ينتفش ، ويسر العيون ، ويسترهب القلوب ، وتخيل إلى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف ، وأنه مُحيق ! ولكن ما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواصل حتى ينفض كالفقاعة ، وينكمش كالقنفذ ، وينطفئ كشمعة الهشيم ، وإذا الحق راجع الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور ، عندئذ وقع واستقر وثبت الحق ، وذهب ما عداه فلم يعد له وجود ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ولكن المفاجأة لم تختتم بعد ، والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى ، فبعد اندحار الباطل وثبات الحق ﴿ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴾ ، ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال معلقاً على هذا المشهد : إنها صورة الحق فى الضمائر ، ونور الحق فى المشاعر ، ولمسة الحق للقلوب المهياة لتلقى الحق والنور واليقين .. إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنههم ، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه . وهم أعرف الناس بالذى جاء به موسى إن كان من السحر والبشر ، أم من القدرة التى وراء مقدور البشر والسحر .

والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له ؛ لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ، ممن لا يعرفون فى هذا الفن إلا القشور ، ومن هذا تحول السحرة عن التحدى السافر إلى التسليم المطلق ، الذى يجدون برهانه فى أنفسهم عن يقين .

ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين . فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب - وهى بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء .

ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذى لم يدرك ديبه في القلوب ولم يتابع خطوة في النفوس ؛ ولم يفتن إلى مداخلة في شعاب الضمائر ، ثم هزته المفاجأة الخطيرة التى تزلزل العرش من تحته ، مفاجأة استسلام السحرة ، وهم من كهنة المعابد - لرب العالمين رب موسى وهارون . بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين ! والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة الطواغيت ، وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تخرج في سبيل المحافظة على الطاغوت .

بمناسبة الكلام عن انقلاب عصا موسى ثعباناً قال الألوسى :

والآية من أقوى الأدلة على جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كالححاس إلى الذهب ، إذ لو كان ذلك تخيلاً لبطل الإعجاز ولم يكن لذكر « مُبِينٌ » في قوله « فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ » فائدة .

وارتكاب غير الظاهر غير ظاهر ، ويدل كذلك - أيضاً - أنه لا مانع في القدرة من توجه الأمر التكويني إلى ما ذكر وتخصيص الإرادة له .

ويقول صاحب الأساس : « في عصرنا استطاع علماء الكون أن يحولوا العنصر إلى عنصر آخر من خلال تغيير عدد الألكترونات والبروتونات في الذرة ، فالقول باستحالة ذلك لم يعد وارداً ، أما موضوع السحر فلم يزل ولن يزال النقاش فيه قائماً ، والفارق بينه وبين المعجزة واضح ، فالسحر جزء من عالم الأسباب ، والمعجزة خرق لعالم الأسباب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - حرمة السحر وحرمة تعلمه ، وجوب إقامة الحد على من ظهر عليه وعرف به .
- ٢ - من سنن الله الجارية : إذا التقى الحق والباطل في أى ميدان فالغلبة والعاقبة للحق دائماً .
- ٣ - بطلان السحر وعدم فلاح أهله لقوله تعالى : « وَلَا يَفْلَحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى » (طه : ٦٩) .
- ٤ - على الدعاة ألا يغتروا بانتفاش الباطل ولا يرهبوا صولته فعاقبته إلى خسران وهزيمة ، وعاقبة الحق إلى علو وانتصار .

٥ - القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فالسحرة في أول النهار كانوا كافرين ، وفي أوسطه مؤمنين ، وفي آخره كانوا شهداء بفضل الله رب العالمين .

معانى الكلمات :

ما تنقم منا : ما تنكر منا . آيات ربنا : معجزاته . أفرغ علينا : أفض علينا .

يذكر : يتركك .

نستحي نساءهم : نستبقى بناتهم للخدمة .

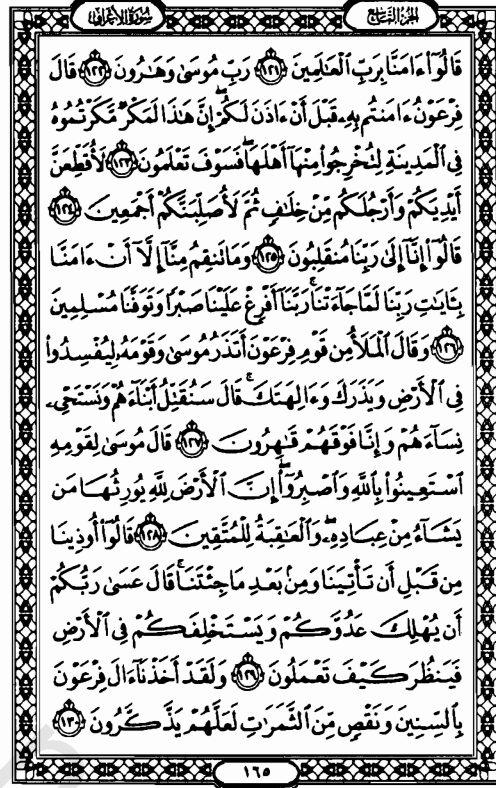
بالسين : بالقحط والجذب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف قيمة الإيمان وأثره في مواجهة الطغيان والعقبات .

٢ - أن ندرك أهمية الاستعانة بالله عند الشدائد .

٣ - أن نتزود من قصة السحرة مع فرعون بثبات الدعاة في وجه الطغاة .



المحتوى التربوى :

ما زالت الآيات تواصل الحديث عن موسى عليه السلام وفرعون بعد أن تبين للسحرة الحق وسجدوا لله معلنين إيمانهم برب موسى وهارون ، فغضب فرعون - لعنه الله - وتوعد هؤلاء المؤمنين منذ لحظات بالانتقام ، لكنهم أصروا على الإيمان مهما يذوقوا من الآلام والمتاعب ، وطلبوا من الله أن يفيض عليهم بالصبر ، وأن يتوفاهم مسلمين .

يقول صاحب الظلال : « نقف .. أمام إدارك السحرة - بعد أشرق نور الإيمان في قلوبهم ، وجعل لهم فرقانا في تصورههم - أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة ، وأنه لا ينتقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين ، فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ، ويهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضرورى لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية الله وحده ، فهو وحده الذى أهل هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله .. ، إنهم يقدمون على الموت مستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين ، وأن عدوهم على دين غير دينهم ... وما يمكن أن يمضى المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين - على ما ينتظرهم فيها من العذيب والتنكيل - إلا بمثل هذا اليقين .. » .

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشى الفظيع : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝

ويقول صاحب الظلال : إنه التعذيب والتشويه والتثكيل .. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق ، الذى لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان ، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح ، ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعل على قوة الأرض، وتستهن ببأس الطغاة؛ وتتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحترق الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، إنها لا تقف لتسأل : ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضى أمامها هناك ، فهي لا تنظر إلى شىء في الطريق، إنه الإيمان الذى لا يفزع ولا يترزعز، كما أنه لا ينحضع أو ينحج، الإيمان الذى يطمئن إلى النهاية فيرضاها ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره .

الذى يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت ، وأنها معركة العقيدة فى الصميم ، لا يداهن ولا يناور ، ولا يرجو الصفع والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة ؛ لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِقَائِلَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا ۖ وَالَّذِى يَعْرِفُ أَيْنَ يَتَجَهَّزُ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَإِلَىٰ مَنْ يَتَجَهَّزُ ؛ لَا يَطْلُبُ مِنْ خَصْمِهِ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ ، إِنَّمَا يَطْلُبُ مِنْ رَبِّهِ الصَّبْرَ عَلَى الْفِتْنَةِ وَالْوَفَاةَ عَلَى الْإِسْلَامِ ﴾ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝

ولما عجز قوم موسى فى آياته ، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد فى الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده ، وذلك من أدل الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح فى معجزته ، وقال الجسمى : إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن التى فى إيرادها إبطال أمر النبى ﷺ إلى القتال الذى لا يفيد ذلك - دل على عجزهم . وهكذا حال كل ضال مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد ، وتدل على أن عند الخوف من الظلمة يحب الفزع إلى الله - تعالى ، والاستعانة به ، والصبر . ولا مفزع إلا فى هذين : وهو الانقطاع إلى الله - تعالى - بطلب المعونة فى الدفع ، واللطف له فى الصبر وتدل على أن العقابة المحمودة تنال بالقوى ، وهى اتقاء الكبائر والمعاصى .

ونعود إلى السياق مرة أخرى فيقول صاحب الأساس : « وأمام هذا الطغيان الرهيب لم يكن موسى إلا أن أمر قومه - وهم المستضعفون - بالاستعانة بالله والصبر - وهكذا تمر لحظات صعبة على أهل الله ، ليس أمامهم إلا هذا ، ووعدهم موسى بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم ولكنهم - وهم من هم فى اللجاج والمخالفة - قالوا شاكين متذمرين : إن هذا الأذى قد نزل بهم من قبل محبى موسى ومن بعد ، فقال منتبهاً لهم عن حالهم الحاضر ، وما يصيرون إليه من مآلهم ﴿ عَسَىٰ

رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وهذا تخصيص لهم على الصبر وحسن الرجاء ، وعلى العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم ، وبدأت العقوبات تتوالى على فرعون وقومه انتصاراً لموسى وقومه ، وعظة لفرعون وقومه ، وتلك سنة الله التي رأيناها من قبل ، أن يأخذ بالباساء والضراء ابتداءً من لم يؤمن برسله ، وهكذا فعل بفرعون وقومه ، ابتلاهم بالجوع والقحط ، فلا ثمر ولا زرع ؛ من أجل أن يتعظوا فكان موقفهم كموقف الأمم السابقة إذا جاءهم الخصب والسعة ادعوا أن هذا لهم حق ومستحق ، وإن جاءهم الجذب والقحط ادعوا أن هذا بسبب موسى وقومه ، وما جاؤوا به ناسين أن هذا كله من عند الله ، ولكنهم جهلة بالله وسنته ؛ ومع ما ابتلاهم الله به ومع كل ما رأوا من الآيات .

قال الجشمي : بمناسبة قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ قال : تدل الآية على أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاحاً في الدين ، لذلك قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد ، وهو الملاذ الحصين الأمين ، وإلا ولئى واحد وهو الولي القوى المتين ، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي القوى المتين . وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدر بحكمته وعلمه وألا يعجلوا ، فهم لا يطلعون الغيب ، ولا يعلمون الخير » .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - قوة الإيثار تتغلب على ما يلاقه المؤمن من صنوف العذاب ، وألوان الأذى ، وبالإيمان يثبت في وجه الطغاة .

٢ - الاستعانة بالله ، والصبر عند الشدائد زاد الدعاة ، وشأن المصلحين في كل زمان ومكان .

٣ - على الدعاة المضطهدين الصبر حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه ، وألا يعجلوا ، فالنصر مع الصبر .

٤ - ما كاد أهل الشرك لأهل الإيمان إلا لتمسكهم بعقيدتهم ، ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (البروج : ٨) ، ولكن العاقبة في نهاية الأمر للمتقين .

٥ - الابتلاء خط أصيل في الدعوات ، والشدّة والبؤس قد يكونا لطفاً وصلاحاً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ ، والابتلاء يظهر معادن أصحاب الدعوات ويمحص أتباع الرسالات ، ويختبر قوة الإيمان .

معاني الكلمات :

يطيروا : يتشاءموا . طائرهم عند الله :
شؤمهم وعقابهم الموعود . الطوفان :
الموت الجارف . القمل : القراد أو القمل
المعروف . الرجز : العذاب .

ينكثون : ينقضون عهدهم . دمرنا :
أهلكنا . يعرشون : يرفعون من الأبنية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نأخذ الفوائد من الشدائد التي
مرت بها الأمم السابقة .

٢ - أن نعلم سنة الله في المجرمين
والمتكبرين فنحذر عواقبها .

٣ - أن نفقه طبيعة الطريق في الدعوة
وعدة الدعاة .



المحتوى التربوي :

تعقب الآيات على قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون ، وما فيها من عظات وعبر ،
فتحدث عما نزل بقوم فرعون من البلايا والمصائب والآيات ، وما ابتلاهم الله به من القحط
والجذب والمجاعات ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم نتيجة إصرارهم على الكفر ،
وتكذيبهم بآيات الله .

إن الكافرين يقفون من كل رسالة موقف المعاند مهما بدت أمامهم من الآيات الازعجة فكان
رد آل فرعون على المعجزة : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْشُكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .
ويقول صاحب الظلال : في ذلك : « هي حالة نفسية تصيب المتحجرين حين يدمغهم الحق
بينما هواهم ومصلحتهم في جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل ! » .

فلقد مضى فرعون وملؤه إذن في جبروتهم ؛ ونفذ فرعون وعيده وتهديده ، فقتل الرجال
واستحى النساء ، ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب ، ويرجون نصر الله ، ويصبرون
على الابتلاء ، وعندئذ عندما نستقرأ الموقف : إيمان يقابله كفر ، وطغيان يقابله صبر ، وقوة
أرضية تتحدى إرادة الله ، عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين الطغاة والصابرين .

فأخذ الله - عز وجل - آل فرعون بالجدب والقحط ونقص الثمرات ؛ ولم ينتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله ، وبغيهم وظلمهم لعباد الله ، وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات في مصر التي تفيض بالخصب والعطاء ، ولا تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلمهم يتذكرون !

لم ينتبهوا لهذه الظاهرة التي شاءت رحمة الله بعباده أن تبرزها لأعينهم ، ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقاً طبيعياً لهم ! وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى شؤم موسى ومن معه عليهم .

وعقاباً لهم على هذا السلوك المقيت أرسل الله عليهم الطوفان فعم الصحراء ، وأتلف عُشيبها ، وكسر شجرها ، وتواصلت الرعود والبروق ونيران الصواعق في جميع أرض مصر ، وجاء الجراد فأكل العشب والتمر ، مما تركه الطوفان ، وسلط القُمَّل على الناس والبهائم وصعدت من الأنهار والمناقع الضفادع فصارت مياه مصر جميعاً دماً عبيطاً ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ؛ ومع كل هذه الآيات المفصلات استكبروا عن الإيمان بالله ، فلم يؤمنوا لموسى وكانوا قومًا عاصين كافرين .

ولما وقع بهم العذاب المفصل ﴿ قَالُوا يَمُوسَى أَذْعُ لَنَّا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ ، قال الشهاب : سميت النبوة عهداً ؛ لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها ، وعهدوا إليه تحمل أعبائها ، أو لأن لها حقوقاً تحفظ ، كما تحفظ العهود ، أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى .

ثم تحجى الخاتمة - وفق سنة الله في أخذ المكذبين - بعد الابتلاء بالضراء والسراء ، وتقع الواقعة ، ويدمر الله على فرعون وملئه - بعد إذا أمهلهم وأجلهم إلى أجل هم بالغوه - ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين ، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين ، فأغرقهم الله بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكرهم ومبالاتهم بها .

قال الجشمي : تدل الآيات أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم ، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله ، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكت فعلهم والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليها .

وتنمى السنون وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة ، يأتي البيان القرآني بعرض صفحة جديدة في حياة بنى إسرائيل وهي ﴿ وَأَوْزَنَّا آلَقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعْفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ فرفعهم الله من حضيض المذلة إلى أوج العزة ؛ لكمال لطفه تعالى بهم ، وعظيم أحسانه إليهم ، وبارك في أقواتهم وأرزاقهم ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ .

قال الزخشرى : وحسبك به حائاً على الصبر ، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع ، وكلمة الله إليه ، ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .

وليس هذا فحسب ، بل دمر الله ما كانوا يعملون من العمارات وبناء القصور ، وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان .

قال القاسمى : قال الزخشرى : وهذا آخر ما قص الله من نبأ فرعون والقيط ، وتكذيبهم بآيات الله : وظلمهم ومعاصيهم ، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل ، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مُلْكَةِ فرعون ، واستعباده ، ومعابنتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر . من عبادة البقر ، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي ، ليعلم حال الإنسان ، وأنه كما وصفه ﴿ لَظُلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٤) جهول نكود ، إلا من عصمه الله ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ : ١٣) وليسلى رسول الله ﷺ ما رأى من بنى إسرائيل المدينة .

ويقول صاحب تفسير المنار : والعبرة في هذه الآيات أن يتفكر تالى القرآن في تأثير الإيمان الوحي في موسى وهارون - عليهما السلام - إذ تصديا لأعظم ملك في أعظم دولة في الأرض قاهرة لقومها ومعبدتها لهم في خدمتها منذ قرون كثيرة ، فدعواهم إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان ، وما زالوا يكافحانه بالحجج والآيات البيّنات حتى أحظرهما الله تعالى به ، وأنقذا قد مهما من ظلمه وظلم قومه .

فجدير بالمؤمنين أن يفكروا في وعد الله - تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بها أمرهم تعالى به على ألسنتهم - وألا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فإن قوة الحق التي نصرها الله تعالى برجلين على أعظم الدول لا تغلب إذا نصرناها ونحن مئات الملايين والله تعالى يقول ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ (عمد : ٧) - ويقول - : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم : ٤٧) .

ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

١ - الشدائد ترقق القلوب ، وتجلب الخشية إلا عند المتمردين الكفرة ، فإنهم يزدادون بالمحن تمرداً وكفراً .

٢ - كثرة الشكر تزيد النعم ، والكفر بها يزيلها .

٣ - على الدعاة إلى الله ألا يستعظموا طغيان الطغاة ، ولا بطش الجبارين ، فقوة الحق تقهر الباطل ، والصبر طريق النصر ، والله وعد عباده المؤمنين قائلاً : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

٤ - على الدعاة أن يصدعوا بدعوة الحق ، ولا يخشوا في الله لومة لائم ؛ فموسى وهارون تصديا لفرعون وقومه وهم قوم جبارون ، فنصرهما الله ، وأورث قوما ديار الظالمين .

معاني الكلمات :

متبر : مهلك مدمر . أبغىكم إلهًا :
أطلب لكم إلهًا معبوداً .

يسومونكم : يذيقونكم . تجلى ربه
للجبل : ظهر له شيء من نوره تعالى .
دكاً : مذكوكاً مفتتاً . صعباً : مغشياً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١- أن نعرف كيف حجد بنو
إسرائيل نعم الله عليهم فكان سبب
هلاكهم .
- ٢ - أن نحذر الجهل بعظمة الله
وجلاله ، لئلا نتعرض لسخط رب
العالمين .

- ٣ - أن نتوب إلى الله في كل وقت



وكل حين ، ونعلن أننا من المؤمنين .

المحتوى التربوي :

تمضي الآيات تعرض صفحة جديدة من قصة موسى عليه السلام مع قومه بنى إسرائيل ؛ بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم ؛ وأغرق فرعون وملأه ؛ ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون ، وهنا لا يواجه موسى عليه السلام فرعون وملئه ، ولكنه يواجه النفس البشرية ورواسب الجاهلية في هذه النفس وطبائعها المتنوعة بين القسوة والجبن والضعف عن حمل التبعات من ناحية ، والخوف والتخفى والالتواء والتحایل والتبجح مع الذعر والتوقع الدائم للبلاء وكل خصال السوء ، وتلك طبيعة اليهود .

ويقول صاحب الظلال : لقد عاش بنو إسرائيل في ظل الإرهاب ، وفي ظل الوثنية الفرعونية يقتل فرعون أبناءهم ويستحي نساءهم ، وعاشوا حياة الذل والسخرية والمطاردة على كل حال ، وفسدت نفوسهم وطبيعتهم وفطرتهم ، وامتألت نفوسهم بالجبن والذل من جانب ، وبالحقد والقسوة من جانب آخر ، ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام ، يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر .

ونعود إلى الآيات لتخبرنا عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ، عندما مروا على عبّاد أصنام إذ طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها كما يعبد هؤلاء أصنامهم ، فردّ عليهم واصفا إياهم بالجهل ، وأى جهل أعظم من الجهل بعظمه الله وجلاله - وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل - ثم بين لهم أن هذا الذى عليه هؤلاء هالك وعملهم باطل ، ثم ذكرهم موسى بنعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة والاستعلاء على عدوهم ، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره ، وما أكرمهم به من تفضيل على عالمي زمانهم ، فكيف يطلب لهم رباً غير الله ، وقد فعل لهم كل ذلك ؟

ذكرهم بأقرب الأشياء إليهم ؛ لأنها أقرب الحجاج عليهم . وإلا فمثل موسى لا يطلب رباً سوى الله ، ولا يدعوهم إلى رب سوى الله . فضلهم أو لم يفضلهم . أنجاهم من ظلم فرعون ، أو أبقاهم . فله الأمر من قبل ومن بعد .

قال القاسمى ، قال الجشمى : تدل الآيات على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر ، وتدل على أن المحن في الأولاد والأهل بمنزلة المحن في النفس ، وتجري مجراه انتهى .

ثم يقص الله - عز وجل - ما أتم به النعمة على موسى وقومه ، إذا أنزل عليهم الألواح في خلوة موسى مع ربه على الطور . وماذا فعلوه من الانحراف الجديد خلال غيبته . فذكر تعالى ممتناً على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية ، بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه الألواح ، وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم . فذكر أنه واعد موسى ثلاثين ليلة . ثم أمره - تعالى - أن يكمل بعشر ، فلما عزم موسى على الذهاب إلى الطور ، استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد . فلما جاء موسى لميقات الله وحصل له التكليم من الله .

سأل الله - تعالى - أن ينظر إليه ، فبين له أنه لا يمكن أن يراه في الدنيا ، وعوضه عن الرؤية بأن أمره أن ينظر إلى الجبل فإذا رأى الجبل مستقراً عند تجلّى الله على الجبل فعندئذ يمكن أن يراه ، فلما تجلّى الله تعالى - للجبل ساخ الجبل واندك وخر موسى مغشياً عليه ، فلما أفاق من صعقه بدأ يسبح الله وينزهه .

والتسبيح هنا يفيد التنزيه لله عن أن يراه أحد في الدنيا ؛ ثم ثنى بالتوبة مما سأل . ثم أردف بالإعلان عن نفسه أنه أول المؤمنين من قومه .

قال صاحب المنار : أن موسى عليه السلام لما نال فضيلة تكليم الله - تعالى - له بدون واسطة ، فسمع ما لم يكن - يسمع قبل ذلك ، وهو من الغيب الذى لا شبه له ، ولا نظير في هذا العالم طلب من الرب - تبارك وتعالى - أن يمنحه شرف رؤيته ، وهو يعلم حتماً أنه - تعالى - ليس كمثله شيء في

ذاته ولا في صفاته التي منها كلامه - عز وجل - فكما أنه سمع كلاماً ليس كمثله كلام بتخصيص رباني ، استشرف لرؤية ذات ليس كمثله شيء من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم .

فلم يكن عقل موسى - وهو في الذروة العليا من العقول البشرية - بدليل العقل والنقل - ما نعا شيء من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى وهما في الذروة العليا أيضاً ما نعين له منه ، ولكن الله تعالى قال له : ﴿ لَنْ تَرَنِى ﴾ ولكى يخفف عليه ألم الرد وهو كلمته الذى قال له في أول العهد بالوحي إليه ﴿ وَأَصْطَقَتْنِكَ لِنَفْسِى ﴾ (طه : ٤١) أراه بعينه ومجموع إدراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لا من جانب الجود الرباني ، فزعه الله ، وسبحه ، وتاب إليه من هذا الطلب ، فبشره الله - تعالى - بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه أى دون رؤيته في الدنيا ، وأمره بأن يأخذ ما أعطاه ، ويكون من الشاكرين له .

قال صاحب (الانصاف على الكشاف) : إنما سبىح موسى لما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا ، والله - تعالى - مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف في خبره الحق وقوله الصدق . فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبىح الله ، وقدم علمه وخبره عن الخلف ، وأما التوبة في حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ؛ لأن منصبهم الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به ، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل . وقد ورد : (حسنات الأبرار ، سيئات المقربين) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - هلاك الأعداء نعمة تستوجب شكر الله - عز وجل - فالشكر يزيد المنن ، والكفر يكثر النقم من الله رب العالمين .

٢ - الجهل بعظمة الله تعالى وبما ينبغي تجاه المولى عز وجل من سمات الجاهلية وباعث على سخط رب العالمين .

٣ - رؤية الله محالة في الدنيا ، وثابتة في الجنة لعباده المتقين ، وممنوع منها الكافرين ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴾ (المطففين) .

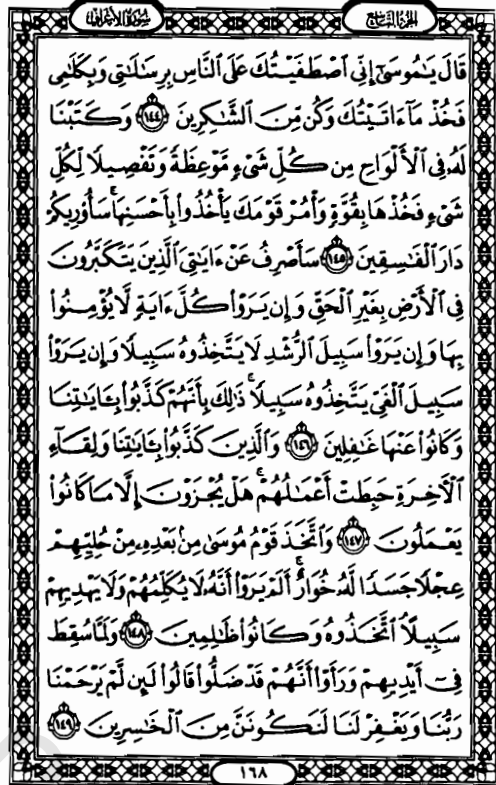
٤ - ينبغي على المسلم التوبة إلى الله في كل حال ، فلقد كان النبي ﷺ يستغفر الله - عز وجل - في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة .

معاني الكلمات :

الألواح : ألواح التوراة . سبيل الرشد : طريق الهدى والصلاح . حبطت : بطلت . عجلًا جسدًا : عجلًا أحمر من ذهب مجسد . له خوار : له صوت كصوت البقر عندما يمر به الهواء . سقط في أيديهم : ندموا أشد الندم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١- أن نعلم أن الهداية والرسالة اصطفاء من الله للبشر .
- ٢- أن نعلم أن الواجب أن تؤخذ أوامر الله بقوة وعزم وجد .
- ٣- أن نعلم أنه لا ينال الهداية ولا العلم حياً ولا مستكبر .



المحتوى التربوي :

تتواصل الآيات ويتلقى موسى رحمة الله مرة أخرى ؛ فإذا هو يتلقى من ربه البشرى ، بشرى الاصطفاء مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص ، وأمره الله - عز وجل - بأخذ ما آتاه ، والشكر على الاصطفاء والعتاء ، وهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغي أن تقابل به نعمة الله ، والرسول صلوات الله وسلامه عليهم قدوة للناس ؛ وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر استزادة من النعمة وإصلاحاً للقلب ، وتحرزاً من البطر ، واتصالاً بالله .

ثم يأتي الحديث عن الألواح التي حوت من كل شيء موعظة وتفصيلاً .

ويقول صاحب الظلال : « وتختلف الروايات والمفسرون في شأن هذه الألواح ؛ ويصفها بعضهم أوصافاً مفصلة - نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير ، ولا نجد في هذا كله شيئاً عن رسول الله ﷺ ، فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق ، ولا نتعدها » .

والأمر الإلهي الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم ، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم ، والعقيدة أمر هائل عند الله - سبحانه - وفي حساب الكون ويجب أن يؤخذ بقوة ، وأن تكون له جدية في النفس ، وصراحتة وحسمه .

يقول صاحب المنار : « والعبرة التي يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارئ لهذه الآية ... أن الكتاب الإلهي يجب يأخذه بقوة إرادة وجد عزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح ، وتكوين الأمة تكويناً جديداً صالحاً ، ويتأكد ذلك في الرسول المبلغ له ، والداعى إليه ، والمنفذ له بقوله وعمله ؛ ليكون لقومه فيه أسوة حسنة ، وتلك سنة الله تعالى في سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية ، وإن لم تكن بهداية الدين ، والدين أخرج إلى القوة والعزيمة ؛ لأنه إصلاح للظاهر والباطن جميعاً .

وقد أمر الله تعالى بنى إسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب أو ميثاق الكتاب بقوة أمراً مقرونًا بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم ... وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم ... إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به في الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالإعراض عنه وهجر هدايته في الدنيا والآخرة » .

وفي مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله موسى وقومه أن يمكن لهم في الأرض ، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه ، وفي نهاية مشهد التكليم يحىء بيان لعاقبة الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته ، يتضمن تصويراً دقيقاً لطبيعة هذا الصنف من الناس ، ويعلم المولى - عز وجل - عن مشيئته في شأن أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ إنه سيصرفهم عن آياته فلا يتفعلون بها ولا يستجيبون لها .. آياته في كتاب الكون المنظور ، وآياته في كتبه المنزلة على رسله وذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته وكانوا عنها غافلين .

قال بعض السلف : لا ينال العلم حياً ولا مستكبر وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقى في ذل الجهل أبداً ، وقال ذو النون : وأبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن .

ونعود مرة أخرى للسياق فيقرر أن الله - عز وجل - لم يظلم هذا الصنف من الخلق بهذا الجزاء المردى المؤدى إلى الهلاك في الدنيا والآخرة ، إنها هو الجزاء الحق لمن يكذب بآيات الله ويغفل عنها ، ويتكبر في الأرض بغير الحق ، ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه ، ويهرع إلى سبيل الغى حيثما لاح له فإنه بعمله جوزى ، وبسلوكه أورد مورد الهلاك ، وإنه لجزاء كذلك أن تحبط وتهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة .

وبينما كان موسى ﷺ في حضرة ربه ، في ذلك الموقف الفريد ، الذى تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار ؛ وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار ، كان قوم موسى من بعده يرتكبون ويتكسون ، ويتخذون لهم عجلاً جسداً له خوار - لا حياة فيه - يعبدونه من دون الله !

وهذه هى طبيعة بنى إسرائيل التى ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوى عن الطريق ، فلقد بادروا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلهًا يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنامهم ! فصددهم نبيهم عن ذلك الخاطر ورددهم ردًا شديدًا . فلما خلوا إلى أنفسهم ، ورأوا عجلًا جسدًا من الذهب لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد ، صنعهم لهم السامرى - رجل من السامرة - كما سيجىء تفصيل قصته فى سورة طه واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يخرج صوتا كصوت خوار الثيران .

وهل أظلم ممن يعبد خلقًا من صنع أيدي البشر . والله خلقهم وما يصنعون ؟ ! وتقول الأحداث : إن هارون عليه السلام كان فيهم - فلم يملك لهم ردًا عن هذا الضلال السخيف . وكان فيهم بعض عقلانهم فلم يملكو زمام الجباهير الضالة المتدافعة على العجل - الجسد وبخاصة أنه من الذهب معبود إسرائيل الأصيل !

وكما يقول صاحب الظلال : وأخيرًا هدأت الهيجة ، وانكشفت الحقيقة ، وتبين السخف وجاءت نوبة الندم والإقرار ، فسقط فى أيديهم وانعدمت الحيلة فى دفع ما هو بصدده من أمر ، ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا بهذه النكسة - إلى موقف لا يملكون دفعه ، فقد وقع منهم وانتهى ! قالوا : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ قال الزمخشري : من شأن من اشتد ندمه وحسرتة ، أن يعرض يده غمًا ، فتصير يده مسقوطة فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الفارسي : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم ، فإن صح ذلك فهو إذاً من السقوط . وأقسموا إنه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التى وسعت كل شيء ، قائلين : لئن لم يرحمنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لسعادة الدنيا وهى الحرية والاستقلال فى أرض الموعد ، ولسعادة الآخرة وهى دار الكرامة والرضوان . ما ترشدنا إليه الآيات ترويًا :

١ - الدعوة إلى الله ، واقتفاء أثر المرسلين والانضمام إلى موكب الهداة والمخلصين اصطفاء من الله رب العالمين يستوجب الشكر بغية الثبات والاستزادة .

٢ - على الدعاة أن يأخذوا تكاليف الدعوة بعزم وقوة ؛ ليكونوا قدوة فى الإيمان والأعمال الصالحات .

٣ - التكبر على الله وعدم طاعته سبيل إلى الذل والجهل ، وكما قال بعض السلف : « لا ينال العلم حياً ولا مستكبر »

معاني الكلمات :

أسفا : حزينا أو شديد الغضب . فلا
تشتت : فلا تسعد الأعداء . الرجفة :
الصاعقة . فنتت : محنتك وابتلاؤك .

سكت : هداً وسكن . أعجلتم : هل
سبقتم بعبادة العجل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن الغضب مذموم إلا
لدين الله ، فإنه ضرورة حتى يستقيم أمر
الدين .

٢ - أن نعلم أن الابتداع في الدين
سبب الذلة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

٣ - أن نلتزم بأداب الدعاء مع الله في
البداء والختام .



المحتوى التربوي :

تورد هذه الآيات مشهداً جديداً بين موسى وقومه ، فعلى حين كان موسى بين يدي ربه في مشهد جليل ، لا يدرى ما أحدث القوم بعده ، إلا أن ينبئه ربه بارتكاسة قومه في حماة الضلالة بعبادتهم العجل فعاد إلى قومه غضبان أسفا ، يبدو انفعال الغضب في قوله وفعله ، وحق لموسى أن يغضب ، فالمفاجأة قاسية ، فبينما هو يرتقى بهم ويتلقى وحى الهداية ، ليرفع من قدرهم ، ويصلهم بهدى السماء ، يرتكسون هم في حماة الضلالة على عجل ، تركهم على الهدى فخلفوه بالضلال ، وتركهم على العبادة فخلفوه بعبادة عجل جسد له خوار !

ويسألهم متعجباً أستعجلتم قضاء الله وعقابه ؟ وألقى الألواح التي كانت تحمل كلمات ربه . وهو لا يلقها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه ، وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه ، وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب !

وتحكي الآيات أن هارون استجاش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ؛ ليسكن منه الغضب ، ويكشف له عن طبيعة موقفه ، وأنه لم يأل جهداً في نصيحة القوم ومحاولة هدايتهم . ويستجيش وجدان الأخوة الناصرة المعينة ، حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون ، ويقرر له أنه لم يضل معهم ولم يكفر كفرانهم .

عندئذ تهدأ ناثرة موسى عليه السلام ويتوجه إلى الله يطلب منه المغفرة له ولأخيه ، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين.

قال القاسمي : « قال الزمخشري : لما اعتذر إليه أخوه ، وذكر له شناعة الأعداء قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ ليرضى أخاه ، ويظهر لأهل الشماته رضاه عنه فلا تتم لهم شماتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ولأخيه أن عسى قَرُط في حسن الخلافة ، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة . قال الجشمي : وتدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط في حال الخوف على النفس ، وفي الحال الذي يُعلم أنه لا ينفع لذلك قال هارون ﴿ آسَئْضَعُفُونِي ﴾ . وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود في الدين ».

ثم يقرر الله أن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، فمن افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغال ، وطققت بهم البراذين .

ذلك مع قيام القاعدة الدائمة : إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته ، وبنو إسرائيل ارتكبوا الخطيئة بعد الخطيئة ، وسامحهم الله المرة بعد المرة ، حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة وهذا جزاء كل المغترين إلى يوم الدين .

يقول صاحب الظلال : « إذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض (يعني بني إسرائيل) ويستعلون بنفوذهم على الأممين ... ، وأنهم يستذلون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم في وحشية ، والدول الضالة تساندتهم وتؤيدهم إلى آخر ما نراه في هذا الزمان ، فليس هذا بناقض لو عيد الله لهم ... إنما هم يستطيّلون على الناس في فلسطين مثلا لأن الناس لم يعد لهم دين ... إنهم يتفرون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية ، ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الإسلامية ، وهم من ثم يخيبون ويغشون ... ولكن هذا كله لن يدوم ستجىء الصحوة من هذه الغيبوبة » .

ثم نبيه - تعالى - عباده وأرشدتهم إلى أنه يقبل التوبة من أى ذنب كان ، ولو كفراً .

ونعود ثانية بعد التعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله ، إلى استئناف القصة ، فإذا نحن أمام مشهد جديد يصور هدوء موسى عليه السلام وسكوت الغضب عنه وأخذه الألواح التي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه ، ويقرر السياق مرة أخرى أن هذه الألواح فيها هدى ورحمة لمن يخشون ربهم ويرهبونه .

وتمضى الآيات لتحكى لنا مشهداً جديداً وهو مشهد موسى وسبعين من قومه مختارين للقاء

ويقول صاحب الظلال : وتختلف الروايات في سبب هذا الميقات وبما كان لإعلان التوبة ، وطلب المغفرة لبنى إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة - وفي سورة البقرة أن التكفير الذي فرض على بنى إسرائيل هو : أن يقتلوا أنفسهم ، فيقتل المطيع منهم من عصى ؛ وقد فعلوا حتى أذن الله لهم بالكف عن ذلك وقبل كفرتهم - وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم .

ومع هذا فما الذى كان هؤلاء المختارين ؟ لقد أخذتهم الرجفة فصنعوا ذلك أنهم كما ورد في السورة الأخرى طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة ، ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح . وهى شاهدة بطبيعة بنى إسرائيل التى تشمل خيارهم وشرارهم ، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار . وأعجب شئ أن يقولوها في مقام التوبة والاستغفار !

فأما موسى - عليه السلام - فقد توجه إلى ربه ، يتوسل إليه ، ويطلب المغفرة والرحمة ، ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة، والتسليم المطلق يقدمه بين يدي دعائه لربه أن يكشف عن القوم غضبه ، وأن يرد عنهم فتنه ، وألا يهلكهم بفعله السفهاء منهم .

ويقول صاحب الظلال : « وهكذا قدم موسى عليه السلام لطلب المغفرة والرحمة بالتسليم والاعتراف بحكمة ابتلائه ، وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح في حق الرب الكريم ونموذجاً لأدب الدعاء في البدء والختام » .

ويقول ابن القيم في إغاثة اللهفان : « إن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حتى عبد قومهم العجل ، ولم ينكروا عليهم يقول موسى . إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ؛ ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ، ولم تهلكهم ، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل ، ثم قال نبي الله : ﴿ أَتُحِبُّونَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ قال ابن الأنبارى وغيره : هذا استشفاهم على معنى الجحد أى لست تفعل ذلك . والسفهاء هنا عبدة العجل » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الذين يعملون القبائح والآثام ، ثم يتوبون ويرجعون إلى الله نادمين مداومين على الإيثار والإخلاص فيه يغفر الله لهم ويقبل توبتهم ؛ لأن الله غفور رحيم .

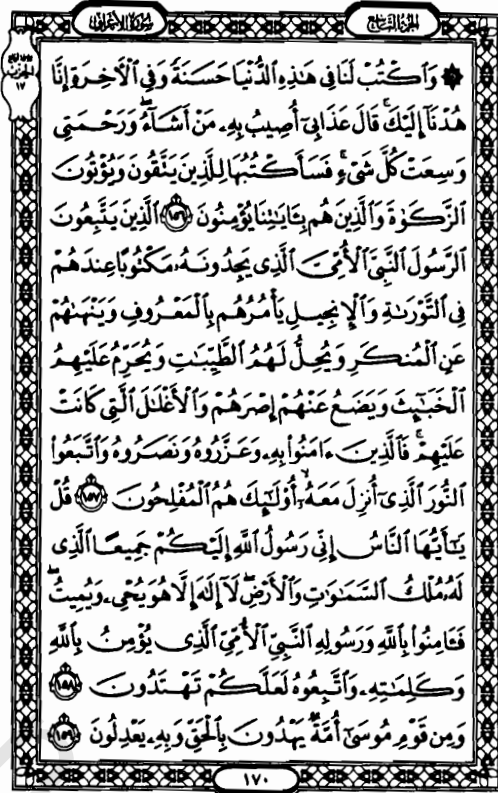
٢ - الغضب لله ولدينه ضرورة حتى يستقيم أمر الدين ، وإلا فهو مذموم .

٣ - على الدعاء - دائماً - اللجوء إلى الله ، وطلب المغفرة منه ، والتسليم المطلق بقدرته والالتزام بأداب الدعاء في البدء والختام .

٤ - كتب الله الذل والصغار على بنى إسرائيل في الدنيا جزاء ضلالهم وكذبهم على الله .

معاني الكلمات :

- هَذَا إِلَيْكَ : تبنا ورجعنا إليك .
 الأغلال : التكاليف الشاقة .
 إصرهم : عهدهم بالعمل بها في التوراة .
 به يعدلون : يحكمون بالحق .
 عزروه : عظموه ووقروه .
 الأهداف الإجرائية والسلوكية :
 ١ - أن نعرف صفات المتقين الذين سينالون رحمة الله في الآخرة .
 ٢ - أن نعلم أن رسالة الإسلام وشريعته أسهل وأيسر الشرائع .
 ٣ - أن نعرف حقيقة هذا الدين ، وواجبنا تجاه تكاليفه وأوامره .



المحتوى التربوي :

في هذه الآيات يجيء الجواب لموسى عليه السلام تقريراً لطلاقة المشيئة، التي تضع الناموس اختياراً، وتجريه اختياراً : وإن كانت لا تجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضاً ، لأن العدل صفة من صفاته - تعالى - لا تتخلف في كل ما تجرى به مشيئته ؛ لأنه هكذا أراد ، فالعذاب يصيب به من يستحق عنده العذاب ، وبذلك تجرى مشيئته ، أما رحمته فقد وسعت كل شيء ؛ وهي تنال من يستحقها عنده كذلك ، ولا تجرى مشيئته - سبحانه - بالعذاب ، أو بالرحمة جزافاً ، أو مصادفة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال الجشمي : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعي أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص ؛ لذلك قالوا : ﴿ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ ﴾ ، وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن فلذلك فصل ، وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد بالإيمان الذي هو التصديق حتى ينضم إليه الطاعات .

وقال أبو منصور : « ما من أحد مسلم وكافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا ، بها يتعيشون ويؤاخون ، ويوادون ، وفيها يتقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة ، لا حظ للكافر فيها ، وذلك قوله : ﴿ فَسَاكَتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي : معصية الله والخلاف له .

ويطلع الله نبيه موسى على طرف من الغيب المقبل ، إذ يطلعه على نبا الملة الأخيرة التي سيكتب الله لها رحمته التي وسعت كل شيء ؛ ويقول صاحب الظلال : وإنه لنبا عظيم ، يشهد بأن بنى إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبى الأمى ، على يدى نبيهم موسى ونبيهم عيسى - عليهما السلام - منذ أمد بعيد جاءهم الخبر اليقين ببعثه ، وبصفاته ، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته فهو « النبى الأمى » وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، وهو يضع عمن يؤمنون به من بنى إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبى الأمى حين يؤمنون به ، وأتباع هذا النبى يتقون ربهم ، ويخرجون زكاة أموالهم ، ويؤمنون بآيات الله ، وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبى الأمى ، ويعظمونه ويوقرونه ، وينصرونه ويؤيدونه ، ويتبعون النور الهادى الذى معه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وبذلك البلاغ المبكر لبنى إسرائيل - على يد نبيهم موسى ﷺ كشف الله - سبحانه - عن مستقبل دينه ، وعن حامل رايته ، وعن طريق أتباعه وعن مستقر رحمته ، فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة ، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين »

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى ﷺ والسبعين المختارين من قومه في ميقات ربه - يكشف كذلك عن مدى جريمة بنى إسرائيل في استقبالهم لهذا النبى الأمى وللدين الذى جاء به ، وفيه التخفيف عنهم والتيسير ، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين !

قال القاسمى : قال الجشمى : تدل الآية - السابقة - على أن شريعته أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان فى الأمم الماضية . وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة ، وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدي إلى توهين ما يتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النُصرة . وهذا لا يختص بعصره فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف . ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحججة ، ووضع الكتب فيه ، وحل شبه المخالفين ، يزيد فى كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا : (منازل العلماء فى ذلك أعظم المنازل) أ. هـ .

وقبل أن يمضى السياق إلى مشهد جديد من مشاهد القصة ، يقف عند هذا البلاغ المبكر ، يوجه الخطاب إلى النبى الأمى ﷺ يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً ، تصديقاً لوعده الله القديم ؛ فرسالة الإسلام هى الرسالة الأخيرة ، الشاملة ، التي لا تختص بقوم ، ولا أرض ، ولا جيل ، ويؤمر النبى ﷺ أن يعرف الناس جميعاً بربههم الحق - سبحانه - فالرسول ﷺ رسول الناس جميعاً من ربهم الذى يملك هذا الوجود كله - وهم من هذا الوجود - والذى يتفرد بالالوهية وحده ، فالكل له عبيد ، والذى تتجلى قدرته وألوهيته فى أنه الذى يحيى ويميت ، والذى يملك

الوجود كله ، والذي له الألوهية على الخلائق وحده ، والذي يملك الحياة والموت للناس جميعاً ، وهو الذي يستحق أن يدين الناس بدينه الذي يبلغه إليهم رسوله فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم ، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له ، وطاعتهم لرسوله .

ويقول صاحب المنار : « وبعد أن أمرهم بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال ﴿ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى : واتبعوه بالإذعان الفعلى لكل ما جاءكم به من أمر الدين فعلاً وتركاً ، رجاء اهتدائكم بالإيمان واتباعه لما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، فثمررة الإيمان والإسلام اهتداء صاحبهما ووصولهما بالفعل لسعادة الدارين ، ودليله الفعلى فى الدنيا أنه ما آمن من قوم نبي إلا وكانوا بعد الإيمان به خيراً مما كانوا قبله من هناء المعيشة والعزة والكرامة فى دنياهم ، وليس هناك رجاء فى أن يهتدى الناس بما يدعوهم إليه ﷺ إلا - باتباعه فيه ، ولا بكفى أن يؤمنوا به فى قلوبهم ما لم يتبع الإيمان العمل .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته فى كل مناسبة ، إنه ليس مجرد عقيدة تستكن فى الضمير ، كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس إنها هو الاتباع الكامل لرسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وفيما يشرعه ويسنه . والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب ، ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب ، ولكنه أبلغهم شريعة الله فى قوله وفعله . ولا رجاء فى أن يهتدى الناس إلا إذا اتبعوه فى هذا كله ، فهذا هو دين الله ، وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التى تشير إليها هذه اللفظة : ﴿ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله .

ولو كان الأمر فى هذا الدين أمر اعتقاد وكفى ، لكان فى قوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الكفاية ! .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - إذا لم يأخذ الصالحون على أيدي المفسدين ، ولم يمنعوا الظالمين من ظلمهم ؛ أوشك الله أن يعمهم جميعاً بعقاب من عنده .

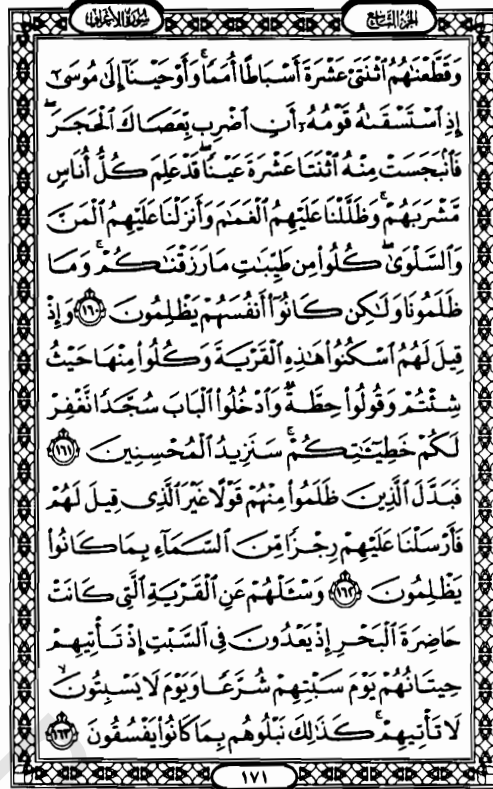
٢ - ينال رحمة - الله - تعالى - المتقون من عباده ، والذين يخرجون زكاة أموالهم ؛ ويكثرون من الصدقات ، ويحرصون على الإيمان بآيات الله ، وعلى اتباع الرسول مع توقيره ونصرته واتباع النور الذى أنزل معه ، ويفوزون كذلك بالفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة .

٣ - الإسلام دين يسر وسهاحة ، وقد خفف الله - تعالى - عن هذه الأمة كثيراً من التكليف الشاقة التى كلف الله بها من كان قبلهم .

معاني الكلمات :

- قطعناهم : فرقناهم . أسباطاً : جماعات .
 فانبجست : فانفجرت . الغمام : السحاب
 الأبيض . المن : مادة صمغية حلوة
 كالعسل . السلوى : طائر يسمى الشَّانِي .
 قولوا حطة : سألتنا حط ذنوبنا عنا .
 حاضرة البحر : قرية من البحر .
 الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف طبائع اليهود وحيلهم
 لنحذرهم ولا نقلدهم .
 ٢ - ألا نستحل محارم الله بأدنى الحيل
 لئلا نتعرض لغضبه وعذابه .
 ٣ - أن نقابل نعم الله بالشكر ولا
 نكفرها كما فعلت بنو إسرائيل .



المحتوى التربوي :

نواصل مع الآيات مشهداً جديداً من أحداث قصة موسى عليه السلام ، حيث تحوطهم رعاية الله فبعد أن كفروا وعبدوا العجل ، ثم كفروا عن الخطيئة كما أمرهم الله ، تاب عليهم ، وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة ، ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم تتجلى هذه الرعاية في تنظيمهم حسب فروعهم في اثنتي عشرة أمة - أي جماعة كبيرة - ترجع كل جماعة منها إلى حفيد من حفداء جدهم يعقوب - وهو إسرائيل - وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية

وتبدو هذه الرعاية الإلهية في تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتعيينها لهم ، فلا يعتدى بعضهم على بعض ، وتبدو في تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة ؛ وإنزال المن والسلوى ، وتيسيره لهم ضماناً لطعامهم بعد ضمان شراهم ، وكذلك في إياحة كل هذه الطيبات لهم ، حيث لم يكن قد حرم الله عليهم بعد شيئاً بسبب عصيانهم .

والرعاية واضحة في هذا كله ؛ ولكن هذه الطبيعة ما تزال بعد عصية على الهدى والاستقامة كما يبدو من ختام الآيات : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

قال صاحب المنار : « وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذى لا يناله تأثير أحد بظلم ولا غيره ، فكانوا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والجحود وغيرها آنا بعد آن وجيلا بعد جيل ، كما هو مبين فى القرآن بالإجمال وفى التوراة بالتفصيل ، فتقديم أنفسهم على يظلمون المفيد لقصر ظلمهم عليها ، إنما هو لبيان أن كفرهم بنعمه - تعالى يضرهم ولا يضره » .

وننظر كيف تلقى بنو إسرائيل رعاية الله لهم بالظلم والتبديل فلقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ، وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل ، ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم ، ثم هاهم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها - أى مدينة كبيرة - لا يعين القرآن اسمها - لأنه لا يزيد فى مغزى القصة شيئا - وتباح لهم خيراتها جميعا ، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ؛ وعلى أن يدخلوا بابها سجدا ، إعلانا للخضوع لله فى ساعة النصر والاستعلاء - وذلك كما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عام الفتح ساجداً على ظهر دابته - وفى مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم ، وأن يزيد للمحسنين فى حسناتهم ، فإذا فريق منهم يبدلون صيغة الدعاء التى أمروا بها ، ويبدلون الهيئة التى كلفوا أن يدخلوا عليها .. لماذا ؟ تلبية للانحراف الذى يلوى نفوسهم عن الاستقامة . ﴿ قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذابا .. السماء التى تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام !

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ وهكذا كان ظلم فريق منهم - أى : كفرهم - ظلما لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله ، وتكرر معهم المعصية والخطيئة ، ولكنهم هذه المرة لا يخالفون الأمر جهره ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها ! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه ؛ لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة فى تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع .

قال صاحب المنار : « إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة ، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة ، لا تاريخ شعوب ومدائن ، ولا تحقيق وقائع ومواقع ، والعبرة فى هذه القصة أن نتقى الظلم والفسق ، ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل الآخرة ، وأنه قد عاقب بنى إسرائيل بظلمهم ، ولم يمل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل ، وكثرة وجود الأنبياء فيهم » .

ويأمر الله - سبحانه - رسوله ﷺ أن يسأل اليهود عن واقعة القرية التى كانت حاضرة البحر ، وهى معلومة لهم فى تاريخ أسلافهم ؛ وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ، ويذكرهم بعصيانهم القديم ، وما جره على فريق منهم من المسخ فى الدنيا ؟ وما جره عليهم جميعا

من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً .. اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي ، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

ولا يذكر اسم القرية التي كانت حاضرة البحر ؛ فهي معروفة للمخاطبين ! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بنى إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية ، وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة ؟ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش فجعل لهم السبت ، ثم كان الابتلاء ليرببهم الله ، ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطباع ؛ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطباع .

وكان ذلك ضرورياً لبنى إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذي عاشوا فيه طويلاً ، ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية لتعتاد الصمود والثبات . فضلاً على أن هذا ضروري لكل من يحملون دعوة الله ؛ ويؤهلون لأمانة الخلافة في الأرض ، وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء .. فلم يصمدا له ، واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى ! ثم ظل هو الاختبار الذي لا بد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الأرض ، إنما يختلف شكل الابتلاء ولا تتغير فحواه !

ولم يصمد فريق من بنى إسرائيل - في هذه المرة - للابتلاء الذي كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم . لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تراءى لهم على الساحل ، قرية المأخذ ، سهلة الصيد ، فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم ! فإذا مضى السبت ، وجاءتهم أيام الحل . لم يجدوا الحيتان قرية ظاهرة . كما كانوا يجدونها يوم الحرم ! وهذا ما أمر رسول الله ﷺ أن يذكرهم به ، ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لا قوا . ما ترشدنا إليه الآيات تريبوياً :

١ - ألا نستغرب رفض اليهود لدعوة الله ، فلقد كانت تأتيمهم الآيات والبراهين والنعم جهازاً واضحات وكانوا يكفرون بالله ورسوله ، ويتحايلون على شرع الله .

٢ - الإشعار لهذه الأمة بالألا تظلم نفسها بمعصية ربها ، وترك شكره ، وعدم تنفيذ أوامره ، كما فعلت بنو إسرائيل مع نعم الله وآياته . فعن أبي هريرة ؓ - بإسناد جيد : أن رسول الله ﷺ قال : « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الخيل » .

٣ - مجيء قصة القرية التي كانت حاضرة البحر درس لمن خالف أمر الله بحيلة من الخيل ، فإذا فهمنا هذا الدرس على ضوء محور السورة نفهم أن هدى الله المنزل يجب أن يطبق بقوة ، فليس الله كغيره ، ولا أمر الله كأمر غيره .

معاني الكلمات :

معذرة إلى ربكم : نعظكم اعتذاراً إلى الله .

بئيس : شديد .

عتوا : استكبروا .

تأذن ربك : أعلم وعزم .

يسومهم : يذيقهم .

خلف : بدل سوء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف أهمية الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وضوابطه .

٢ - أن ندرك أن ابتلاء الله لعباده رحمة

وتذكير ووقاية من النسيان والاعترار .

٣ - أن نعطي قضية الآخرة والتقوى

الأولوية في حياتنا فها أساس العقيدة في

الحياة .



المحتوى التربوي :

وتحضى الآيات تواصل قصة القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ حيث راح فريق من سكان القرية يجتالون على السبت الذى حرم عليهم الصيد فيه ، وروى أنهم كانوا يقيمون الحواجز على السمك ويجوون عليه فى يوم السبت ؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه ؛ وقالوا : إنهم لم يصطادوه فى السبت ، فقد كان فى الماء - وراء الحواجز ، غير مصيد !

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتياى على الله ! فيحذر الفريق العاصى مغبة احتياله ! وينكر عليه ما يزاوله من الاحتياى ! بينما يمضى فريق آخر ثالث يقول للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر : ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة ، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه ؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب ؟

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم ، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم بعد ما كتب الله الهلاك عليهم أو العذاب الشديد ؛ بما اقترفوه من انتهاك لحرمان الله : ﴿ قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَز وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ . فهو واجب لله نؤديه - واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتخويف من انتهاك الحرمان ، لنبلغ إلى الله عذرنا ، ويعلم أن قد أديننا واجبنا . ثم لعل النصيح يؤثر فى تلك القلوب العاصية فيشير فيها وجدان التقوى .

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم : أمة عاصية محتالة ، وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة ، وأمة تدع المنكر وأهله ، وتقف موقف الإنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي .

فلما لم يجد النصيح ، ولم تنفع العظة ، وسدر السادرون في غيهم ، حقت كلمة الله ، وتحققت نذره ، فإذا الذين كانوا يnehون عن سوء في فجوة من سوء ، وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد ، فأما الفرقة الثالثة - أو الأمة الثالثة - فقد سكت النص عنها ... ربما تهوينا لشأنها .. وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب - إذ إنها قعدت عن الإنكار الإيجابي ، وقفت عند حدود الإنكار السلبي ، فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب .

ثم كان العذاب البئيس جزاء العصاة المحتالين ، جزاء إمعانهم في المعصية ، التي يعتبرها النص كفرًا ، وجرت كلمة الله التي يجري بها الخلق والتكوين ابتداء ، « كن » فصاروا قردة خاسئين ، ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع - إلا الذين يؤمنون بالنبى الأمى ويتبعونه - بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التي لا تنتهى ؛ وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذى لا راد له ولا معقب عليه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّرْتُكَ رَبُّكَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ إلى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب .

فهو إذن الأبد الذى تحقق منذ صدوره ؛ فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب ، والذى سيطر نافذًا في عمومهم ، فبيعت الله عليهم بين أونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب . وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة ، الناكثة العاصية ، التي لا تخرج عن معصية إلا لتقع في معصية ؛ ولاتتوب من انحراف حتى تنجح إلى انحراف .

ثم تمضى خطوات القصة مع خطوات التاريخ ، من بعد موسى وخلفائه مع الأجيال التالية في بنى إسرائيل إلى الجيل الذى كان يواجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة ، فتحكى الآيات أن اليهود تفرقوا في الأرض ، جماعات مختلفة المذاهب والتصورات ، مختلفة المشارب والمسالك ، فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح ، وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات . تارة بالنعماء وتارة بالبأساء ، لعلهم يرجعون إلى ربهم ، ويشوبون إلى رشدهم ، ويستقيمون على طريقهم .

ويقول صاحب الظلال : والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد ، وتذكير دائم لهم ، ووقاية من النسيان المؤدى إلى الاغترار والبوار .

ثم تتحدث الآيات عن خلف جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى ، ويصفهم السياق بأنهم ورثوا الكتاب ودرسوه ، ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم . شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ ، وكلما رأوا عرضًا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا

عليه ، ثم تأولوا وقالوا : ﴿ سَيَغْفِرُ لَنَا ﴾ ، وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد .

ويسأل الله - عز وجل - سؤال استنكار : ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص ، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق .. فما بالهم يقولون سيغفر لنا ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا ؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيده غفرانه لهم ، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقاً ؛ ويقلعون عن المعصية فعلاً ؛ وليس هذا حالهم ؟ فهم يعودون كلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا ، وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه !

ويقول صاحب الظلال : « بلى ! ولكن الدراسة لا تجدى ما لم تحالط القلوب وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة ، إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا ، وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ، ولا يأخذونه عقيدة ؛ ولا يتقون الله ولا يرهبونه ؟ !

ولأن قضية الآخرة ، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة ، يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى - عرض الحياة الدنيا - إلى العقل : ﴿ وَالْدارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

ولو كان العقل هو الذى يحكم لا الهوى ، ولو كان العلم الحق لا الجهالة التى تسمى العلم هو الذى يقضى لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى ، ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً .

والتمسك بالكتاب فى جد وقوة وصرامة ، وإقامة الصلاة - أى شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الربانى لصلاح الحياة ، وتشير الآية إلى هذه الحقيقة : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ حقيقة أن الاستمسك الجاد بالكتاب عملاً ، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذى لا يضيع الله أجره على المصلحين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - ضرورة القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طاعة لله - تعالى - وأخذاً على يد المفسدين ، وتطهيراً للمجتمع من ظلمهم وشرورهم ، وحتى ينتشر الخير ويعم السلام والأمن .
٢ - إذا أدى المصلحون دورهم وتمادى المفسدون فى إفسادهم ؛ فإن عقاب الله - تعالى - ينزل بالمفسدين وحدهم .

٣ - حرص اليهود على متاع الدنيا ، والوصول إليه بشتى الطرق ولو أدى بهم إلى ارتكاب المعاصي والذنوب .

٤ - ضرورة التمسك بما أنزل الله ، والمحافظة على الصلوات والإصلاح فى الأرض .

معانى الكلمات :

نتقنا الجبل : رفعناه .

كانه ظلة : كأنه سقف مرفوع .

انسلخ منها : كفر بها .

الغاوين : الضالين .

أخلد إلى الأرض : ركن إليها .

تحمل عليه : تشدد عليه وتمنعه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن التوحيد حقيقة مركوزة

في فطرة كل البشر .

٢ - أن نعرف الحكمة من إرسال

الرسل بالرسالات .

٣ - أن نسخر العلم في التعريف بالله -

عز وجل - وطاقته وحسن عبادته .



المحتوى التربوى :

تحكى الآيات كيف أخذ الله على بنى إسرائيل الميثاق ، فلقد أخذ في ظرف لا يُنسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ؛ فأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس ، ولقد أمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية ، وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة ، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق ، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه ، لعل قلوبهم تخشع وتتقى ، وتظل موصولة بالله لا تنساه !

ولكن إسرائيل هي إسرائيل ! نقضت الميثاق ، ونسيت الله ، ولجت في المعصية ، حتى استحققت غضب الله ولعنته وحق عليها القول ، بعدما اختارها الله على العالمين في زمانها ، وأفاء عليها من عطاياه . فلم تشكر النعمة ، ولم ترع العهد ، ولم تذكر الميثاق ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم تتحدث الآيات عن قصة العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم ؛ أخرج ابن جرير وغيره - بإسناده - عن ابن عباس قال : « مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ موثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم : « أأست بربكم ؟ قالوا : بلى » على أن هناك تفسيراً لهذا النص بأن العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم هو عهد الفطرة .. فقد أنشأهم

مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده ، وأودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه ، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها ، ويميل بها عن فطرتها .

وقال ابن كثير في التفسير : قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد .

وعقب المولى - عز وجل - على هذا الإشهاد بأنه أخذه حتى لا يكون هناك سبيل إلى أن يقول أحد : إنه غفل عن كتاب الله الهادى إلى التوحيد ، وعن رسالات الله التى دعت إلى هذا التوحيد ، أو يقول : إننى خرجت إلى هذا الوجود ، فوجدت آبائى قد أشركوا فلم يكن أمامى سبيل لمعرفة التوحيد ، إنما ضل آبائى فضلت ، فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول ! ومن ثم جاء هذا التعقيب على هذه الشهادة : ﴿ أَلَمْ تَقُولُوا يَوْمَ الْآيَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « ولكن الله - سبحانه - رحمة منه بعباده ، لما يعلمه من أن فى استعدادهم أن يضلوا إذا أضلوا ، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف - بفعل شياطين الجن والإنس ؛ الذين يعتمدون على ما فى التكوين البشرى من نقاط ضعف !

ومن رحمة من الله بعبادة قدر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا ؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به ، حتى يرسل إليهم الرسل ، ويفصل لهم الآيات ، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفى وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ عباده بها ، ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هى الرسالة » .

وكمثل للانحراف عن سوء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها ، ذلك الذى آتاه الله آياته ، فكانت فى متناول نظره وفكره ؛ ولكنه انسلخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع هواه فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية ؛ فاستولى عليه الشيطان ؛ وأمسى مطروداً من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

يقول صاحب الظلال : « إنه مشهد من المشاهد العجيبة .. إنسان يؤتیه الله آياته ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع ولكن هاهو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً . ينسلخ كأنها الآيات أديم له متلبس بلحمه ؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه ويتجرد من الغطاء الواقى ، وينحرف عن الهدى لیتبع الهوى ؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم ، فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه ، ثم إذا نحن أولاً أمام مشهد مفزع بائس نكبد .. إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقاً بالأرض ، ملوثاً بالطين . ثم إذا هو مُسَخَّ فى هيئة كلب ، يلهث إن طورد ، ويلهث إن لم يطارد ، فإذا انتهى مشهد اللهاث الذى

لا ينقطع سمع التعليق المرهوب الموحى : ﴿ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايِعَتِنَا وَأنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴾ .

قال صاحب المنار : « إن من شأن من أوتى آيات الله تعالى أنه ترتقى نفسه ، وترتفع في مراقب الكمال درجته لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى ، وإنما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية : « وإنما لكل امرئ ما نوى » وأما من لم ينو ذلك ، ولم تتوجه إليه نفسه ، وإنما تلقى الآيات الإلهية اتفاقاً بغير قصد ، أو بنية كسب المال والجاه ، ووجد مع ذلك في نفسه ما يصرفه عن الاهتداء بها فلن يستفيد منها ، وأسرع به أن ينسلخ منها ، فهو يقول لو شئنا لرفعناه بها لأنها في نفسها هدى ونور ، ولكن تعارض المقتضى والمانع وهو إخلاءه إلى الأرض واتباع هواه .

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها ، ويعلن غيرها ، ويستخدمه علمه في التحريفات المقصودة ، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ، يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدى على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً .

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ؛ فلم ينتفع بهذا العلم ؛ ولم يستقم على طريق الإيمان ، وانسلخ من نعمة الله . ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان ، ولينتهى إلى المسخ في مرتبة الحيوان ، ويعقب السياق على هذا المثل بأن الهدى هدى الله ، فمن هداه الله فهو المهتدى حقاً ؛ ومن أضله الله فهو الخاسر الذى لا يربح شيئاً .

قال أبو السعود : « لما أمر النبي ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثلهم ؛ ليتفكروا فيه ويتركوا ما هم عليه من الإخلاء إلى الضلالة ، ويهتدوا إلى الحق - عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية في حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه ، سوى كونها دواعى إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله .. » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - توحيد الله - تعالى - وإفراده بالعبودية فطرة في النفس البشرية ، فطر الله الناس عليها منذ أن كانوا ذرات في أصلاب آبائهم من آدم ﷺ .

٢ - يجب أن ندعو الله دائماً بالخير ونتجنب الدعاء بالشر والإثم وقطيعة الأرحام .

٣ - يجب أن نحذر من الشيطان ووساوسه ، ومن الغرور بزينة الدنيا ومتعها ، ومن النفس الأمارة بالسوء وملذاتها .

٤ - العلم الذى لا يودى إلى طاعة الله ، علم بارد لا يعصم من الهوى ، ولا يرفع من ثقله الشهوات شيئاً ، ولا يدفع الشيطان ، بل ربما ذلل له الطريق وعبدها .

معاني الكلمات :

ذرأنا : خلقنا . يلحدون : ينحرفون إلى الباطل . أملى لهم : أمهلهم . جنة : جنون . طغيانهم : تجاوزهم للححد .

يعمهمون : يتحIRON . آيان مرساها : متى وقوعها .

لا يجليها : لا يظهرها . ثقلت : عظمت لشدتها . حفى عنها : باحث عنها عالم بها . الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نسأل الله بأسأاته الحسنى وصفاته العليا .

٢ - أن نعلم منزلة العلماء والدعاة إلى الله في هذا الدين .

٣ - أن نستشعر أهمية المبادرة بالتوبة قبل مجيء الأجل .

المحتوى التربوى :



في هذه الآيات يبين الله - عز وجل - أنه خلق للنار أهلها - وهو أعدل للعادلين وأحكم الحاكمين وأهل النار هؤلاء المهيأون لدخولها ، قلوبهم لا تفقه الحق ولا تعقله ، وأعينهم لا تبصر الآيات ، وأسماعهم لا تسمع الموعظة ، فهم لا يسمعون الحق ولا يعاونونه ، ولا يبصرون الهدى ، كالأنعام السارحة التى لا تستفيع بهذه الحواس منها إلا فى ما يقيتها ، بل هم أضل من الدواب ؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا ناداها ودعاها وإن لم تفقه كلامه ، ولأنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده .

قال أبو السعود : « المراد هؤلاء الذين ذرأوا لجهنم الذين حققت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ، لكن لا بطريق الجبر ، من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدى إلى ذلك ، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبداً ، بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ، ولا عاطف يشيهم من الآيات والنذر ، فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغنياً بها » .

ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك الكمالات ، ودفع تلك النقائص ، وهم مع نالهم عن تلك القوة قد خلوا عن الكمالات ، وعن دفع أضدادها ، فكانوا أردأ حالا منها لنقصدهم مع وجود قوة الكمال فيهم ، وأيضا الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره وهؤلاء أكثرهم معاند فيقدم على النار .

وهؤلاء هم أهل الغفلة عن الله وآياته ودينه وشريعته، ولكي لا نكون كهؤلاء الغافلين عن آيات الله التي تدل على أسمائه الحسنى .

ذكرنا الله - عز وجل - بأن له الأسماء الحسنى ، وأمرنا أن نسميه بها ، وأن نترك الملحدون بأسمائه ، بالإعراض عنهم ، وانتظار ما أعد الله لهم من عذاب جزاء أعمالهم .

ونعود مرة أخرى للسياق فيأمر الله بإهمال المنحرفين - الذين كانوا يتمثلون في المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام بالشرك - الذين يلحدون في أسماء الله ويحرفونها ، ثم يمضي السياق يفصل صنوف الخلق .. بعدما ذكر منهم من قبل أولئك الذين ذرأهم الله للجهنم ، ومنهم هؤلاء الذين يلحدون في أسماء الله ويحرفونها ، ثم إن منهم أمة يستمسكون بالحق ، ويدعون الناس إليه ، ويحكمون به ولا ينحرفون عنه ، وأمة - على الضد - ينكرون الحق ويكذبون بآيات الله ! فأما الأولون فيقرر وجودهم في الأرض وجوداً ثابتاً لاشك فيه ، وهم حراس على الحق حين ينحرف عنه المنحرفون ، ويزيغ عنه الزائغون ؛ وحين يكذب الناس بالحق وينبذونه يقون هم عليه صامدين .

يقول صاحب الظلال : إن صفة هذه الأمة - التي لا تنقطع وجودها من الأرض أياً كان عددها - أنهم لا يهدون بالحق ، فهم دعاة إلى الحق لا يسكتون عن الدعوة به ، وإليه ، ولا يتوقعون على أنفسهم ولا ينزويون بالحق الذي يعرفونه ، ولكنهم يهدون به غيرهم ، فلهم قيادة فيمن حولهم من الضالين عن هذا الحق ، المتنكرين لذلك العهد ، ولهم عمل إيجابي لا يقتصر على معرفة الحق ، إنما يتجاوزوه إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه ، فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق في حياة الناس والحكم به بينهم ، تحقيقاً للعدل الذي لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق .

والذين يلحدون في هذا الدين يجدون مشقة في تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة ، وهم من أجل ذلك يواجهون إليه جهوداً لا تكل ، وحملات لا تنقطع .. وهم يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً مضى ولا تمكن إعادته ، ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية ، والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق - على قلة العدد وضعف العدة - ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية والله غالب على أمره .

لذا واجه القرآن الكريم قوماً من المكذبين بآيات الله في مكة بتهديد رعيب : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِفَاتِنَتِنَا سَتَسَدِّرْجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٠) وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .

ولقد كان الملأ من قريش يعلمون أنهم كاذبون ! وقد تضافرت الروايات على أنهم كانوا يعرفون الحق في أمر رسول الله ﷺ ، وأنهم ما كانوا يملكون أن يمنعوا أنفسهم عن الاستماع لهذا القرآن والتأثر به أعمق التأثير مثل قصة الأخنس بن شريق ، وأبى سفيان بن حرب ، وعمر بن هشام في الاستماع لهذا القرآن خلصة ، ليالى ثلاثاً ، وما وجدوه في أنفسهم منه معروفة .

والقرآن يدعوهم إلى التفكير والتدبر في أمر صاحبهم هذا المعروف لهم ماضيه كله ، المكشوف لهم أمره كله أفهَذَا به جنة ؟ أفهَذَا قول مجنون وفعل مجنون ؟ كلا لا اختلاط في عقله ولا في قوله إنما هو منذر مفصّح مبين .

ويدعوهم للنظر في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض ، وفيما خلق من شيء فيهما ، ليتدبروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبهة ومن فعله لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا لله . فيجب أن يؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، ويعترفوا بالله وآياته ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله ، وأليم عقابه .

ويبين الله - عز وجل - أن الأمر أمره ، فإن من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولا يضل الله إلا من يستحق الضلال ، فذلك الذي يتركه الله متخبطاً في ظلمات الضلال ، ثم يبين لنا سخر هؤلاء إذ يتركون التفكير فيما ينبغي ، ويتركون العمل فيما ينبغي ، ويسألون عما لا تقدم أو تؤخر معرفته ، فهم يسألون عن الساعة عن وقت وقوعها وهم في الأصل مكذبون ، فسؤالهم في الحقيقة استبعاد لوقوعها وتكذيب بوجودها ومع أنهم مستبعدون ومكذبون فهم يتساءلون عن محطها ، وأول وقتها ، يسألون الرسول ﷺ عن ذلك كأنه من المتكلفين لمعرفة ما لم يرد الله أن يعرفه عليه ، وهنا يأمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم جوابين الجواب الأول : أن الساعة لا يعرف علمها أحد إلا الله . والجواب الثاني : أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً بل هو مفوض أموره كلها إلى الله ، وهو تحت مشيئته ، وأنه لا يعلم المستقبل ولا اطلاع له على شيء منه ، إلا بما أطلع الله عليه .

إن أمر الساعة من الأمور التي لا يعلمها إلا الله عز وجل لم يطلع عليها ملك مقرب أو نبي مرسل ، وفي إخفاء وقتها رحمته بالمؤمنين حتى يكونوا متأهبين كل وقت ، إذ لو علم الإنسان وقت لكسلت النفس عن الطاعة وعن القيام بالتكاليف الربانية ، ولكن الله جلا وعلا جعل لكل إنسان ساعته وهي لحظة الموت .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الله له الأسماء الحسنى ، فلا يجوز أن نسميه بما لا يليق به من كمال وجلال ، ولا بما لم يسم به نفسه .

٢ - الله - تعالى - يمهّل الظالمين استدراجاً لهم ولا يمهّلهم ، بل يأخذهم بعذاب شديد .

٣ - يجب المبادرة بالتوبة قبل أن يأتي الأجل ، فلا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً .

٤ - علم الساعة وما يحدث فيها من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله ، ولم يطلع عليها ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا ، ولا أحداً من خلقه .

معاني الكلمات :

تغشاها : جامعا .

فمرت به : فاستمرت بغير تعب .

أنقلت : صارت ذات ثقل كبير .

صالحا : ولدا سليما .

جعل له شركاء : بتسمية ولديها عبد

الحارث بوسوسة إبليس .

ييطشون : يأخذون الأشياء بشدة أو

يعتدون بها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن ندرك خطورة الكلمة ومدلولها

الحقيقي ونحذر عند قولها .

٢ - أن نوقن أن الغيب لا يعلمه إلا الله

ولم يطلع الله عليه أحدا سواه .

٣ - أن نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا سلطان

فوق سلطان الله فلا معبود بحق سواه .



المحتوى التربوي :

توضح الآيات أن الرسول ﷺ وهو من هو . وقربه من ربه هو قربه ، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام الغيب بشر من البشر ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ؛ لأنه لا يطلع على الغيب ، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب ؛ ولا يرى مآل أفعاله ، ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله . بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيرا أقدم ، وإن رآها سوءا أحجم . إنها هو يعمل ، والعاقبة تحيى كما قدر الله في غيبه المكنون .

والرسول ﷺ نذير وبشير للناس أجمعين ، ولكن الذين «يؤمنون» هم الذين يتفجعون بها معه من النذارة والبشارة ، فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه ، وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به ، ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها ، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين .

يقول صاحب الظلال : إن الكلمة لا تعطى مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها والعقل الذى يستشرفها ويتقبلها ، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسرارها ولا يعطى ثماره ، إلا لقوم يؤمنون ، ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله ﷺ : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن ، وهذا الإيمان هو الذى كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التدوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الإدراك ، ويصنعون به تلك الخوارق التى صنعوها فى أقصر وقت من الزمان .

وتحدث الآيات عن جولة جديدة في قضية التوحيد ، لتصوير خطوات الانحراف من التوحيد إلى الشرك في النفس ، فيذكرهم أنه هو الذى خلق جميع الناس من آدم وأنه خلق منه زوجه حواء . وأنه خلق منهما كل الأزواج ، وأن هؤلاء الأزواج إذا مارسوا ما خلقه الله فيهم وما يأهم له مما فيه بقاء الجنس أنهم في شوقهم إلى الولد ، وفي حالة رهيبهم من مسخه أو خطره ، كانوا يطلبون من الله ويعدون الله من أنفسهم الشكر ، فإذا ما أعطاهما الله ما أرادا قابله بالشرك ، وتعالى الله أن يكون له شريك في ملكه وسلطانه وفي ألوهيته وربوبيته .

قال القاسمى : « هذه الآية سبقت توبيخاً للمشركين في جنائهم بالشرك ، ونقضهم ميثاقهم في جريمهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه ، وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن ، ثم إنشأه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة ، ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون ، وولد لهم ما يشتهون ليكون من الشاكرين ، ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم التي امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم في إفراده بالشكر ، حيث أشركوا معه غيره في ذلك » .

في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ يقول صاحب الظلال : « الأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاستقرار ليظل هذا هو المحض الأمين ، الذى يخرج منه الجيل البشرى الذى يحمل تراث التمدن البشرى ، ولم يجعل شقاقاً ونزاعاً بين الاختصاصات والوظائف فلكل من الزوجين مهام حددها الإسلام » .

ويقرر السياق أن الذى يخلق هو الذى يستحق أن يعبد ! وألتهم المدعاة - كلها - لا تخلق شيئاً بل هى تُخلق ! فكيف يشركون بها ؟ كيف يجعلون لها شريكاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم . وإن الذى يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذى ينبغى أن يعبد فالقوة والقهر والسلطان هى خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية . وألتهم المدعاة - كلها - لا قوة لها ولا سلطان ، فهم لا يستطيعون نصرهم ، ولا نصر أنفسهم فكيف يجعلون لها شريكاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم .

يقول صاحب الظلال : « وما علمنا أن العرب في وثنيتهم كانوا يشركون بألهة من البشر - بمعنى أنهم يعتقدون بألوهيتهم أو يقدمون الشعائر التعبدية لهم - إنما كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية والأحكام في النزاعات - أى الحاكمة الأرضية . وأن القرآن يعبر عن هذا بالشرك ، ويسوى بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء ، وهذا هو الاعتبار الإسلامى لهذا اللون من الشرك ، فهو شرك كشرِك الاعتقاد والشعائر لا فرق بينه وبينه ، كما اعتبر الذين يتقبلون الشرائع والأحكام من الأحرار والرهبان مشركين ، مع أنهم لم يكونوا يعتقدون بألوهيتهم ولم يكونوا يقدمون لهم الشعائر كذلك ، فكله شرك وخروج عن التوحيد الذى يقوم عليه دين الله ، والذى تعبر عنه شهادة أن لا إله إلا الله » .

ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتحدى هؤلاء المشركين بأن تستطيع آلهتهم أن تكيده ، شيئاً ثم أمره أن يعلن أن الله الذى أنزل عليه الكتاب هو يتولاه ويتولى الصالحين .

ويقول صاحب المنار - تعليقاً على قوله - تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثْمَالِكُمْ ﴾ - والحق الذى لا معدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع الموجه إلى من يعتقد الداعى أن له سلطاناً يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته أو يحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعى لأجله .

يقول الله تعالى : إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد الله أمثالكم فى كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسننه فى خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا يستطيعون نياله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم فيما يتوقف على التعاون فى اتخاذ الأسباب له ، وإنما يدعى لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق والرب الخالق المسخر للأسباب الذى تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها .

وهذه المماثلة إنما تظهر فيمن يدعى عن دون الله تعالى من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحاء ، دون ما اتخذهم تذكيراً بهم من التماثيل أو القبور أو الأصنام ، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد لذاته ، جهلاً بما كانت اتخذت لأجله ، وفى هذه الحالة تدخل فى المماثلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لأجله .

وفى خاتمة سياق هذه الآيات يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول هؤلاء المرزوقين بعقولهم ، المحتقرين لنعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ، ثم تعانوا على كيدى جميعاً ، وأجمعوا مكرهم الخفى لإيقاع الضر بى سريعاً ، فلا تنظرون أى لا تؤخرونى ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبار ، وحكمة مطالبتهم بهذا أن العقائد والتقاليد الموروثة تغلغل فى أعماق الوجدان ، حتى يتضاءل دونها كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على بطلانها يتوهم أنها تضر وتنفع ، وتقرب من الله وتشفع فطالبهم بأمر عملى يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء نداء استغاثة واستنجاد لإبطال دعوة الداعى إلى الكفر بها . وإثبات العجز لها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الله - تعالى - هو الضار النافع ولا يملك أحد لنفسه من دون الله نفعاً ولا ضرراً .
٢ - خلق الله الجنس البشرى من ذكر وأنثى ، وجعل بينهما الأنس والمودة والرحمة ؛ لينشأ فى ظلهم ورعايتهم النسل الصالح .

٣ - الأبوان مسؤولان عن حسن تربية أبنائهما وتنشئتهما على الدين .

٤ - التنديد بالشرك والمشركين ، وبيان جهل المشركين وسفاهتهم ؛ إذ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب ولا ينفع .

٥ - أن نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا سلطان ولا قوة فوق سلطان الله ، فلا معبود بحق سواه فينبغى أن نفرده بالإخلاص والتوحيد وخالص الاعتقاد .

معاني الكلمات :

- ينزغتك : يصرفك .
نزغ : وسوسة أو صارف .
مسهم طائف : أصابتهم وسوسة ما .
لا يقصرون : لا يكفون عن إغوائهم .
اجتبتها : اخترعتها من عندك .
بالغدو والأصال : في أوائل النهار وآخره .
الأهداف الإجرائية والسلوكية :
١ - أن نأخذ بالعفو ونأمر بالعرف
ونعرض عن الجاهلين .
٢ - أن نعلم آداب الاستماع إلى القرآن
وتلاوته .
٣ - أن نلتزم بأوامر القرآن في التعامل
مع المشركين والجاهلين والمعادنين .



المحتوى التربوي :

في هذه الآيات يوجه الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتحدى المشركين ويتحدى آلهتهم العاجزة - كلها ، ويعلن عن عقيدته الناصعة في تولى الله - وحده - له : وقال لهم : ألا يألوا جهداً في جمع كيدهم وكيد آلهتهم ؛ بلا إمهال ولا إنظار ! وقالها في لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذي يرتكن إليه ، ويحتمى به من كيدهم جميعاً ، فأعلن أنه يرتكن إلى الله .. الذي نزل الكتاب ..

ويقول صاحب الظلال معلقاً على هذا التحدى وهذا الإعلان : إنها لكلمة صاحب الدعوة إلى الله - بعد رسول الله ﷺ في كل مكان وفي كل زمان : ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ .. ﴿ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي تَزَلُّ الْكُتُبُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ إنه لا بد لصاحب الدعوة أن يتجرد من أسناد الأرض ، وأن يستهين كذلك بأسناد الأرض ؛ إنها في ذاتها واهية واهنة ، مهما بدت قوية قادرة ... وصاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن ؟ وما تساوى في حسه ؛ حتى لو قدرت على أذاه ، إنها تقدر على أذاه بإذن ربه الذي يتولاه . لا عجزاً من ربه عن حمايته من أذاها - سبحانه وتعالى - ولا تحلياً منه سبحانه عن نصرته أوليائه .. ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب ، واستدرجاً لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين ! وعلى ذلك أمثلة كثيرة منها .

إن أبا بكر رضي الله عنه كان يردد ، والمشركون يتناولونه بالأذى ؛ ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه ، حتى تركوه وما يعرف له فم من عين ! كان يردد طوال

هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله ﷺ : « رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! » كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه ! لقد كان واثقاً أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه ؛ كما كان واثقاً أن ربه لا يتخلى عن أوليائه !

وبعد هذا الإعلان تحيى عدة توجيهات من الله سبحانه إلى أوليائه . رسول الله ﷺ ، والذين آمنوا معه ، وهم بعد في مكة ، فيدعو صاحب الدعوة إلى السباحة واليسر ، والأمر بالواضح من الخير الذى تعرفه فطرة البشر في بساطتها ، بغير تعقيد ولا تشديد ، والإعراض عن الجاهلين فلا يؤاخذهم ، ولا يجادلهم ، ولا يحفل بهم .

يقول صاحب الظلال فى أمر الله لرسوله ﷺ أن يأخذ العفو ، ويأمر بالعرف : « خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، ولا تطلب كل أولئك فى المعاملات الشخصية لا فى العقيدة الدينية ولا فى الواجبات الشرعية فليس فى عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضى والتسامح » .

ولكن فى الأخذ والعطاء والصحبة والحوار ، وبذلك تمضى الحياة سهلة لينة ، فالإغضاء عن الضعف البشرى ، والعطف عليه والسباحة معه واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء ورسول الله ﷺ راع وهاد ومعلم ومرب ، فهو أولى الناس بالسباحة واليسر والإغضاء . وكذلك كان رسول الله ﷺ لم يغضب لنفسه قط ، فإذا كان فى دين الله لم يقم لغضبه شئ ! .. وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضى سعة الصدر ، وسباحة طبع ، ويسراً وتيسيراً فى غير تهاون ولا تفریط فى دين الله .

ويقول القاسمى : بمناسبة هذه الآية أيضا يقول بعض العلماء : إن سر الشريعة فى الطباع والعادات ، هو تأييد المستحسن ومحو المستقبح . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته ، والمنكر ما أنكرته واستقبحته ، ذلك لأن غاية الشريعة راحة الخلق على حال ونظام معقولين ، فلا يصح الحكم بتوحيد العادات فى كل البلاد . أهـ .

فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد . ونفخ الشيطان فى هذا الغضب ، فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر .

ثم يعرفه طبيعة أولئك الجاهلين ، والوسوسة التى وراءهم والتى تمدهم فى الغنى والضلال ، ويذكر طرفاً من سلوكهم مع رسول الله ﷺ وطلبهم الخوارق .

والسياق هنا يحكى بعض أقوالهم الدالة على جهلهم بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول فهم يطلبون الآيات ، وإذا لم تأتهم الآية قالوا : لولا ألححت على ربك حتى يترها أو هلا فعلتها أنت نفسك ؟ ألسنت نبيا ؟ ! ، فهم لم يكونوا يدركون طبيعة الرسول ووظيفته ، كذلك لم يكونوا يعرفون أدبه مع ربه ، وأنه يتلقى منه ما يعطيه ، ولا يقدم بين يدي ربه ولا يقترح عليه ، ولا يأتى كذلك الشئ من عند نفسه ، والله يأمره أن يبين لهم أنه ليس بمفتعل للآيات ولا يملك إلا ما يوحى إليه ربه .

كذلك يؤمر رسول الله ﷺ أن يبين لهم ما في هذا القرآن الذي جاءهم به، وأنه بصائر تهدي، ورحمة تفيض لمن يؤمن به، ويغتنم هذا الخير العميم .

يقول الإمام محمد أبو زهرة في زهرة التفسير : « وَهُدًى لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » هذان وصفان وصف الله تعالى آياته وأخصها القرآن ، ففيه أمران جليان ذا شأن في الرسالات الإلهية :

أولها : فيه هدى يهدي إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم ، فهو يبين الهدى من الضلالة ، والنور من الظلمات بما اشتمل عليه ، وبدلالاته الذاتية ، وبإعجازه ، وبأنه يهدي إلى الطيب من القول ، ويهدي إلى الصراط الحميد .

وثانيهما : إن فيه الرحمة بما اشتمل عليه من شريعة حكيمة تصلح أمور الناس ، وتذهب عنها الفساد ، فهي بما شرعت من النظم في الأسرة ، ومعاملات بين الناس ، ومنع لأكل أموالهم بينهم بالباطل ، وإن هذه الهداية وتلك الرحمة لقوم من شأنهم الإيمان ؛ ولذا قال تعالى : « لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » فوصفهم بالجملة التي يتصدرها الفعل المضارع للدلالة على إيمانهم المستمر ، المتجدد أنابعد آن على وجه الدوام » .

يقول صاحب الظلال : « إن العبادة والذكر عنصر أساسى في منهج الدين ، إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشرى ، وهذا التغيير يحتاج إلى جهد طويل ، وطاقه صاحب الدعوة محدودة ، ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاده يسمده من ربه » .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى ما أوحاه إليه ربه من القرآن ، يحىء توجيه المؤمنين إلى أدب الاستماع لهذا القرآن ؛ وأدب ذكر الله ؛ مع التنبيه إلى مداومة هذا الذكر ، وعدم الغفلة عنه ، فإن الملائكة الذين لا يخطئون يذكرون ويسبحون ويسجدون ، فما أولى البشر الخطائين ألا يغفلوا عن الذكر والتسبيح والسجود » .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة » قال ابن كثير : تفرد به الإمام أحمد - رحمه الله تعالى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الإسلام دين يسر وسماحة يأمر بالتزام الأخلاق الكريمة ومن أرقاها العفو عمن ظلم وإعطاء من حرم ، وصلة من قطع .

٢ - وجوب الاستعاذة بالله عند الشعور بالسوسة أو الغضب أو تزين الباطل .

٣ - فضيلة التقوى هي فعل الفرائض وترك المحرمات .

٤ - شؤم أخوة الشياطين حيث لا يقصر صاحبها بمد الشياطين له عن الغنى الذى هو الشر والفساد .

٥ - عدم التهادى مع الجاهلين السفهاء حتى لا ينتقص قدر الإنسان ، وإنما يعرض عنهم ولا يجارهم في سفاهتهم .

٦ - ضرورة الإنصات وحسن الاستماع إلى القرآن الكريم من غير أن يحدث ضوضاء ولا تشويشاً مع حضور القلب وتدبر آيات الله ، ودوام ذكر الله - تعالى - والإخلاص له في العبادة .